

# **الباب الأول**

## **المرأة والواقع**

---

- الفصل الأول :العلاقة بين المرأة والرجل.**
- الفصل الثاني : المرأة والمجتمع.**
- الفصل الثالث :المرأة والوطن.**

# الفصل الأول

## العلاقة بين المرأة والرجل

لا شك أن العلاقة بين الرجل والمرأة على الصعيد الواقعي "هي عنوان كبير لإشكاليات التقدم والتخلف والتطور والارتقاء"<sup>(١٤)</sup>، ولكن رصد هذه العلاقة في الرواية الفلسطينية قد لا يشكل مؤشراً، أو دليلاً كبيراً على حركة تنامي الواقع وتطوره، ذلك أن الروائي الفلسطيني - والروائي عامة - حين يعرض الواقع، فإنه لا يقدمه كما هو، وإنما يحاول "إعادة ترتيبه بما يتناسب مع آمال الشعب وأهدافه، فالنظرة الواقعية عنده ليست استنساخاً بليداً للواقع، وإنما هي اكتشاف وغزو خلّاق لقسماته الأساسية القائمة الممكنة، إنها اكتشاف للملامح النمطية والنموذجية في الحياة، والمعبرة عن جوهر صراعاتها ومواقفها وحركاتها النشطة، بكل ما تتضمنه من عذابات وانتصارات ومشاق وإمكانات منهرة أو متولدة"<sup>(١٥)</sup>.

من هذا المنطلق صور الروائيون الفلسطينيون شتى العلاقات بين المرأة والرجل، ووقفوا في معظم رواياتهم على صور إيجابية كثيرة لعلاقات سليمة ومعافاة، وصور سلبية قليلة لعلاقات مريضة مأزومة، ولكن كثرة هذه، أو قلة تلك ليست إلا تعبيراً عن رؤية الكاتب الفنية للواقع الفلسطيني. تلك الرؤية التي تحمل من الشجن والطموحات ما تحمله من الرؤية الواقعية.

وسنحاول فيما يلي أن نستعرض العلاقة بين المرأة والرجل كما صورتها الرواية العربية الفلسطينية، راصدين مختلف جوانبها وسماتها، سواء أكانت داخل الأسرة أم خارجها.

(١٤) -شكري، د. غالي: أزمة الجنس في القصة العربية، دار الشروق، القاهرة، ط ١/ ١٩٩١ المقدمة

(١٥) -أبو مطر، أحمد: الرواية في الأدب الفلسطيني ٢٤٣.

## أولاً- العلاقة بين المرأة والرجل داخل الأسرة:

عنيت الرواية الفلسطينية بتصوير العلاقة بين الرجل والمرأة، وإبراز المكانة التي تحتلها المرأة في عالم الرجل، ولا سيما المثقف الثوري، على حين لم تعن أكثر الروايات بتصوير العلاقة بين المرأة والرجل التقليدي السلبي، بوصفه يشكل إحدى العقبات الأساسية في طريق تحرير المرأة وتطورها اجتماعياً وفكرياً وسياسياً وعملياً، ولذا كان حضوره باهتاً في أغلب الروايات التي شملها البحث.

على حين شهدت الرواية الفلسطينية حضوراً مميزاً للمرأة التقليدية، التي لم تكن مدانة في معظم الأحيان، ذلك لأنها تجسدت -غالباً- في صورة الأم- المثال، التي "تحاط بهالة من التقدير تبلغ حدّ التقديس أحياناً"<sup>(١٦)</sup> هذه الصورة المثالية للأم، انعكست في الرواية الفلسطينية، لدى معظم الروائيين الفلسطينيين، ف"على نفس القدر من الجلال الذي تحتله الأم في واقع الحياة، يأتي التصوير المعبر"<sup>(١٧)</sup>. ولما كان الواقع اليومي في المجتمع الفلسطيني، ولا سيما مجتمع الأرض المحتلة، يتسم بالمعاناة الشديدة، والضغط الحياتية بمختلف أنواعها، كان لا بد أن ينعكس هذا الواقع المؤلم على الأسرة الفلسطينية وعصبها الأساسي (الأم)، فأى أثر تركته الأم في علاقتها بكل من الزوج والأولاد؟

يلاحظ الباحث في الرواية الفلسطينية حضوراً مكثفاً للمرأة الأم، وبالمقابل انحساراً ملحوظاً لدور الرجل- الأب في الأسرة، وربما يعود السبب في ذلك إلى أن المرأة- الأم تشكل قيمة اجتماعية ونفسية وأخلاقية في عقلية الإنسان العربي، وهي تنطوي على قدرة غير محدودة على العطاء والتفاني<sup>(١٨)</sup>. إلى جانب كونها رمزاً للوطن، وللأرض والخصب، ولها اليد الطولى في تدبير أمور المنزل وتربية الأطفال وتنشئتهم وتوجيههم وتعليمهم وتزويجهم.

### ١- الأم وأولادها:

تطالعنا في رواية "العشاق" لرشاد أبي شاور، صورة الأم الفلسطينية المكافحة

(١٦) -حجازي، مصطفى: التخلف الاجتماعي. سيكولوجية الإنسان المقهور، معهد الإنماء العربي. بيروت

ط ١٩٩٢ ص ٢٣٠ في معرض حديثه عن الاختلالات الإيجابية للمرأة.

(١٧) -وادي، طه: صورة المرأة في الرواية المعاصرة ٢٧٨.

(١٨) -ينظر: حجازي، مصطفى: التخلف الاجتماعي ص ٢٣٣.

بعنفوانها وكبريائها، وبقوة إرادتها، وعظمة إيمانها بالمستقبل، وطول صبرها، لم يربكها غياب زوجها الذي قتله حراس الحدود الأردنية، وهو يعبر ليقوم بعمليات فدائية داخل الأرض المحتلة. ولم يضعف عزيمتها على الصمود، وهي تجد نفسها تتحمل أعباء فوق طاقتها، بل تواجه مسؤولياتها نحو ولديها، فتظلهما بحبها ورعايتها، وتغمرهما بحنانها ودفئها، وتصمد في وجه الأيام الصعبة بشجاعة نادرة. ومن خلال شريط الذكريات، نقف على علاقتها بزوجها "سلمان عباس". ويبدو أنها كانت زوجاً متفهمة محبة وفية واعية. يظهر ذلك من خلال تضحيتها بذهبها، ليشترى زوجها ذخيرة، ولكنه قتل، فعانت بعد مقتله ظروفاً بالغة القسوة، بعد الهجرة الأولى عام ١٩٤٨، من الخليل إلى أريحا. ويتذكر ابنها محمود تلك الأيام السوداء، وأمّه التي صمدت: "لقد عشنا على التمر والخبز الأسود. خبز الشعير، وخبز الذرة، ونادراً خبز القمح. تلك الأيام السوداء أرهقنا بعدك (بعد والده)، لكنها صمدت تلك المرأة الشجاعة، أمّنا.. أيام التمر. أيام البطانيات السوداء الخشنة، نصنع منها اللباس والأكفان والغطاء والفراش. أيام العيش على الخبيزة والأعشاب البرية. نساق الحيوانات على اقتلاعها.. ها نحن نعيش، راحت أيام التمر.. ولكن الذكريات السوداء، وهدير الطائرات والملابس الملطخة بالدم، والبيوت المهدمة لن تتلاشي"<sup>(١٩)</sup>.

لقد حرص الروائي الفلسطيني على أن يقدم الأم الفلسطينية، في إطار إنساني وفني بديع ومميز، إذ قدمها إنسانة مكافحة، متعائلة بالمستقبل، محبة للحياة ولأرض والعمل. فلم تستسلم للواقع المزري الذي فرضه عليها الاحتلال من جهة، وفقد الزوج من جهة ثانية، بل عملت وكافحت، بكل ما أوتيت من قدرة على مغالبة الشدائد، والصمود أمام جبروت الاحتلال للضفة والقطاع عام ١٩٦٧، وما جرّه من ويلات، لكي تؤمن لأولادها ولنفسها الحياة الحرة الكريمة. فأم محمود الطيبة الوديعة، التي استشهد زوجها، وتركها وولديها الصغيرين بلا مال ولا بيت ولا أمان.. نقف على قدمين ثابتتين، ونتمكن من تربية ولديها بشرف وكرامة، وتحرص على تعليمهما، فيصبح ابنها البكر معلماً في مدارس وكالة الغوث، على حين يحز في نفسها أن ابنها الثاني (محمد) لم يتم دراسته، وأنه يصرف وقته في الغناء، ضارباً على عوده الأثير، فتصفه بالمغنوتي، وتخشى ألا تتيسر له حياة لائقة مثل قرنائها، فيقترب منها، ويمسح على رأسها، ويقبل شبيبتهما قائلاً:

(١٩) - أبو شاوور، رشاد: العشاق، دار الجليل، دمشق ط٣/١٩٨٢ ص١٢٣.

"تحزني عندما تفكرين بي وكأنني طفل صغير، لقد اخترت مستقبلي. هذا العود يا أمي هو السراط الذي سأسير عليه إلى الوطن. أنا لن أكون عالية على أحد. سأذهب إلى الحياة ومع عودي"<sup>(٢٠)</sup>.

وليس إصرار "أم محمود" على تعليم ولديها أكثر من إصرار "أم حسن" على الهدف نفسه، فهي تكذب وتعرق في سبيل أبنائها. تعمل في صنع الأجر من الطين والتبن، فتبني بيتها، وتعلم ولديها.

يتحدث محمود لصديقه عن أم حسن بقوله: "أتدري؟ مرة راقبتها عن بعد وهي تعمل، نصبت جذعها وسط جبلة الطين، بدت مثل زيتونة جبلية صغيرة، ولكنها قوية، هذه المرأة - هكذا قلت لنفسي يومها- لا تصنع الطوب من أجل الربح، إنها تستمتع بخلق هذا الطوب وبأن الناس يبنون بيوتاً، من عرقها وجهدها"<sup>(٢١)</sup>. هذا الجهد هو الذي ساعد ابنها حسن على أن يدرس الجغرافيا في جامعة دمشق. وساعد أخاه على إتمام دراسته في مدرسة قلنديا.. على الرغم من اعتقادها بأن "الصنعة جيدة، أفضل من التعليم وهمه"<sup>(٢٢)</sup>. فقد أصرت على تعليم ولديها.

ونلتقي في "البكاء على صدر الحبيب" (١٩٧٥) لأبي شاوور أيضاً بصورة موحية للأُم المكافحة الصابرة التي ضحت بشبابها وسعادتها من أجل ولدها الوحيد "زياد" بعد أن فقدت الزوج والمعيل جراء استشهاده دفاعاً عن القرية، وترك لها طفلاً، لما يتجاوز السادسة من عمره، فهاجرت من أريحا مع طفلها، إذ بدأت رحلة الشقاء والكدر في سبيل تربية الولد ورعايته وتعليمه، إلى أن شب وأصبح كاتباً مسرحياً وشاعراً، بعد أن أنهى دراسته للأدب في جامعة القاهرة<sup>(٢٣)</sup>.

\*

وفي "الصورة الأخيرة في الألبوم" لسميح القاسم (١٩٨٠)، ترتسم ملامح "أم أمير" من خلال تصرفاتها وسلوكها وكلماتها وحنوها على أولادها، فتبدو امرأة طيبة بسيطة، تعاني مشاق الحياة، ولا سيما بعد وفاة زوجها الذي صودرت أرضه الخصبة، فعمل في البناء، وهو غريب عن هذه المهنة، فسقط عن السقالة من الطابق الرابع، فشطرته أرجوحة أطفال في الدور الأرضي إلى نصفين، فوجدت

(٢٠) - العشاق - ٨٣.

(٢١) - المصدر السابق ٥٨.

(٢٢) - المصدر السابق ٥٨.

(٢٣) - ينظر، أبو شاوور، رشاد: البكاء على صدر الحبيب، دار الحقائق، بيروت ط٢/١٩٨٣ ص ١١-١٢-٢٢.

عزاءها بأولادها، وبذلت ما في وسعها لتعليم "أمير" و"علي" وإبقاء البيت مفتوحاً، بإسهام ولديها الكبيرين. وبصبرها وعطفها على الأسرة، استطاعت أن تجمع شمل الأخوة، وتوحد كلمتهم، وتزرع المحبة والإخلاص فيما بينهم. وتحاول قدر المستطاع التخفيف من الام "أمير" وعذابه والتضامن معه، وهو الذي يعاني من البطالة على الرغم من حصوله على درجة الماجستير في العلوم السياسية. فإذا به يضطر للبحث عن عمل داخل الكيان الصهيوني، لكي يؤمن به لقمة العيش. تقول: "لا يهكم يا روحي، سافر والله معك. إذا وجدت عملاً، كان به، وإن لم تجده للقرء. طعام واحد يكفي اثنين، وإن لم يسعك البيت، وسعتك القلوب، نحن كلنا قدامك، أخوتك يعملون، والصغير ناجح في المدرسة والحمد لله، ليس ضرورياً أن تشتغل. أبوك الله يرحمه سيفرح في ترابه حين يعلم أن بيته مفتوح، وأنتك تستقبل الناس في مضافته، لا تحزن يمّه. يا حبيبي" (٢٤).

وتعرض الرواية صورة دالة لأم أمير وقد تَلَقَّت نبأ تفوق ابنها الأصغر "علي" وحصوله على أعلى الدرجات في الشهادة الثانوية، فهي ترى أن تعليم ابنها سيفتح لها ولأبنائها نافذة على الحياة الحرة الهانئة الكريمة. وهو "ينظر إلى التعليم كهدف نضالي.. يغامر من أجله ويلحق به حيث يكون" (٢٥): "ذهل حين استدارت أمه نحوه وراحت تحدق فيه جامدة.. تخطى عتبة الباب، ووقف قبالتها.. إنها جامدة.. وتفجرت الدموع بغزارة من عينيها المنهكتين.. ولكنها لا تبكي.. لا صوت، ولا نأمة.. مجرد دموع غزيرة تنهمر وتتدافع على الخدين المغضنين.. تتعرج الدموع في مسارها.. ترتعش الشفة قليلاً.. تلتقي الدموع عند غمازة الذقن الغائرة.. تمثال يبكي.. ارتعاشة الشفة تنتقل كالعدوى إلى سائر تضاريس الوجه المرهق.. ترتفع اليدان ببطء.. وقبل أن تتحرك أمه يكون علي قد سقط على رأسها بصدرة الضامر المرتعد.. ويشهقان وتتصلب الأذرع الوالهة، وكأنها تسعى لخلق موازنة ما مع تصلب الحياة المطبقة كالكماشة على بقايا الأسرة المتشبهة بأحلامها، وبحقها في حياة حرة سعيدة" (٢٦).

ففي هذا المشهد المؤثر، ومن خلال الوصف الدقيق لقسمات الوجه، وعبر اللغة الروائية التي لا تخلو من الشفافية، يرسم سميح القاسم، بدقة وبراعة، صورة معبرة للأُم الطيبة، ولهيكلا المرهق الرحيم، ولوجهها الإلهي الذي طالما منح ابنها الثقة والحب الأمل.

(٢٤) - الصورة الأخيرة في الألبوم ٨-٩.

(٢٥) - أبو بكر، وليد: الواقع والتحدي في رواية الأرض المحتلة ١٠-١١.

(٢٦) - الصورة الأخيرة في الألبوم: ص ٣٥-٣٦.

\*\*\*

ولم يقف اهتمام الأمهات بالأبناء في الرواية الفلسطينية، عند حدود تعليمهم وحسب، بل حاولن تزويجهم، أيضاً، لأن ذلك يمنح الأمهات الشعور بالراحة والاطمئنان على مستقبل الأبناء. فأم محمود في "العشاق" تبارك على علاقة ابنها بـ "ندى" وتعتبر عن فرحتها إزاء قراره بالزواج منها، وتعلق على ذلك قائلة: "أنا موافقة طبعاً.. على بركة الله.. منذ زمن بعيد لم يدخل الفرحة بيتنا"<sup>(٢٧)</sup>. كذلك تبارك "أم حسن" علاقة ابنها بزوينب، وتتمنى الإسراع بزواجهما، فتخاطب محموداً صديق ابنها قائلة: "أنا مستعدة أن أدفع المهر لوالد زينب غداً، وأزوجه خلال أسبوع"<sup>(٢٨)</sup>.

\*

ويعرض أبو شاور موقفاً للأُم من زواج ابنها في "البكاء على صدر الحبيب"، فأم زياد تلح على ابنها بقبول الزواج، لتراه مستقراً في حياته: "آه يا يما، متى أراك عريساً وأراها بجوارك فتاة حلوة مثل القمر. أرى لك أطفالاً؟.. يا ولدي، يا حبة عيني، ليس لي غيرك، حملتك وهربت بك من عيون الناس، شقيت، وانتظرت كل هذا العمر كي أسعدك، أريد أن أغمض عيني، وأن أرى لك بيتاً وزوجة وأطفالاً، ألا تعجبك ولا بنت في كل المخيم؟ أم أنك تخفي أسرارك عن أمك العجوز"<sup>(٢٩)</sup>.

فالأم إذاً، كما صورتها الرواية الفلسطينية، تعي بمنطقها السليم، معنى أن يتزوج الابن، وينجب أطفالاً. وها هو أحد الأبناء يعبر عن أهمية الزواج والإنجاب للإنسان الفلسطيني بشكل خاص. فالزواج بالنسبة إليه ليس ضرورة إنسانية وطبيعية واجتماعية فحسب. بل هو إلى جانب ذلك وغيره، واجب وطني، يقول محمود: "كيف لا نتجب؟ ذلك يعني أننا لا نستحق أن نكون مواطنين. شجرة الموز تثمر وتعطي، والأشجار الصغيرة تنمو بجوار ساقها، تموت الشجرة الكبيرة، وتتقدم إحدى الشتلات الصغيرة فتأخذ دورها، وهكذا. الشتلة الأقوى، الأكثر تشبهاً بالحياة، الأكثر عطاء، هي التي تأخذ دور أمها، الشتلات الأخرى تنقل إلى حفر أخرى، والتي تنمو وتعيش تثمر وتعطي، وهكذا. بعض الشتلات تموت،

(٢٧) -العشاق ص ٢٥٢-٢٥٣

(٢٨) -المصدر السابق ١٤٢.

(٢٩) -البكاء على صدر الحبيب: ص ١١، ونشير أيضاً إلى رغبة أم أسامة في الصبار، في زواج ابنها من "توار" ص ٣٥-٣٦.

ليكن، بعض الشتلات تعيش وتتمو، هذه هي الحياة. والذي قتل وهو يجتاز الحدود، وها نحن نعيش..<sup>(٣٠)</sup> وكأنه يقول: ها نحن نكمل مسيرة الوالد، نحن امتداد له.. وهذا ما تريده أمانا، وهذا ما يتطلبه الواقع الفلسطيني النضالي، من أجل استمرار الشعب، وتناسله، وقدرته على الصمود والبقاء. ولا بد من التنويه إلى أن رواية "العشاق" هي من أبرع الروايات الفلسطينية تصويراً لعلاقة الأمهات بالأبناء، تلك العلاقة التي قامت على الحب والاحترام والتفاني، في جو يسوده الاضطهاد والحرب والدماء. ومع ذلك، لم تكن هذه العلاقة الحميمة لتتأثر سلباً بما يحيطها من معاناة وظلم ونفي وتشرد، فكثيراً ما نرى الأمهات يمزحن مع أبنائهن وأصدقائهن. ونرى الأبناء يمزحون مع أمهاتهم. فهذا محمود يمزح مع أمه يوم خرج من المعتقل فيناديها، كما كان يفعل دائماً:

"أم محمود، تعالي، ماذا تفعلين أيتها العجوز؟

أنا عجوز يا ولد، أي والله لو شئت لتزوجت قبل بنات اليوم"<sup>(٣١)</sup>.

وها هي "أم محمود" تمزح مع ابنها الأصغر "محمد" فتقول له:

"-آه يا محمد يا هامل

انتهرها بود:

-امسكي هذا العود يا عجوز. وإذا اقترب منها، أمسكت العود ببسراها وأهوت بيمنها على رقبته.."<sup>(٣٢)</sup>.

إن هذا المرح كان بمنزلة "السر الروحي، أو السلاح الذي يحمي الحياة الفلسطينية من الاندثار تحت وطأة الهم واليأس"<sup>(٣٣)</sup>.

## ٢- الأم الشاملة:

ولا تقف علاقة الأمهات بالأبناء عند هذا الحد، فالألم الفلسطينية القروية الكادحة- كما قدمها الروائي الفلسطيني- ليست كسائر الأمهات. أمومتها تشمل شباب الوطن الواعدين، فهي تعطيهم الحب والحنان والعطف والرعاية والحماية، وتحظى منهم بالاحترام والتقدير والمحبة. ففي اللوحة الثالثة من رواية "أم سعد" ١٩٦٩، وعنوانها في

(٣٠) -العشاق ٢٥٤.

(٣١) -العشاق ٤٥.

(٣٢) -المصدر السابق ٤٨

(٣٣) -عبد الله، محمد حسن: الريف في الرواية الفلسطينية. عالم المعرفة، الكويت، عدد ٤٣/١٩٨٩ ص.

قلب الدرع يقدم كنفاني صورة للأم الفلسطينية في أعظم تجلياتها. حين يحاصر سعد مع بعض رفاقه الفدائيين في موقع داخل الأرض المحتلة ويطول الحصار أياماً عدة يعانون خلالها الجوع والإرهاق، وتمر بهم آنذاك امرأة قروية فيقول سعد: "ها قد جاءت أمي"<sup>(٣٤)</sup> ويعلق أحد الفدائيين بأنه لا بد قد جن، فكيف يمكن لأمه أن تأتي إلى هنا؟ ولكن سعد يصر على أنها أمه بينما يعترض رفاقه وهم يعبرون عن خشيتهم من أن تذهب وتشي بهم إلى قوات الاحتلال وينادي سعد: "يا يما ردي علي.. أنا هون يما.. أنا سعد، يا يما جوعان"<sup>(٣٥)</sup>. ويننو سعد منها أكثر فأكثر، وحينما يصبح مواجهاً لها تضمه إلى صدرها بلهفة وإعجاب... وتجلب له ولمجموعته الفدائية الطعام طوال خمسة أيام حتى تخبرهم بفك الطوق.

"وتكتسب هذه اللوحة شاعريتها الرائعة، ليس من المرأة الفلسطينية الأخرى تقدم لهم العون كأم. ولكن من أن سعدا يصر، أنها أمه فعلاً، وهي فعلاً أمه. لأن كلتا المرأتين واحدة في الجوهر والمعنى. وحين يعود سعد لأمه يقول لها: إنه رآها هناك، وأنها لو لم تطعمه لمات جوعاً. ويقول لها: إنه يراها هناك دائماً. إذا فنداؤه لهذه المرأة التي أطعمته، ليس حادثة منفردة، فهو دائماً يرى أمه داخل فلسطين، لأن أم سعد موجودة داخل فلسطين وفي المنفى. وحين تحكي أم سعد للراوي ما كاه لها ابنها ثم تستدير لتخرج، يجد الراوي نفسه يناديها فجأة "يا يما" فتقف، وهكذا تكتمل الدائرة. فأم سعد هي أم الجميع، إنها الفلسطينية داخل فلسطين، وهي أم الفدائي الذي شب على أرض المنفى"<sup>(٣٦)</sup>. إنها باختصار، الأم الشاملة التي ينتمي إليها أبناء فلسطين وغيرهم من الأوفياء لأرضهم، لتاريخهم لأرواح شهدائهم.

\*

ويقدم إميل حبيبي في لوحة "أم الروبائكا" في روايته سداسية الأيام الستة" (١٩٦٩) نموذجاً للأم التي "لا تتوقف.. عند حدود الخاص بل تظل محافظة على العام الذي تجسده"<sup>(٣٧)</sup> فهي لا تكتفي بالعناية بأبنائها فحسب بل نراها تعنتي بأبناء الوطن جميعهم، تقف إلى جانبهم ساعة الشدة، فتوكل لمن سجن معهم محامياً، وتزوره في السجن، وتحمل إليه السجائر وتغسل قمصانه.

\*

(٣٤) - كنفاني، غسان: الآثار الكاملة مج ١ ص ٢٨١.

(٣٥) - المصدر السابق ٢٨٢-٢٨٥.

(٣٦) - عاشور، رضوي: الطريق إلى الخيمة الأخرى، دار الآداب، بيروت ط ١٩٨١/٢ ص ١٢٦.

(٣٧) - بسيسو، عبد الرحمن: استلهام الينبوع، مؤسسة سنابل / ط ١ / ١٩٨٣ ص ٢٤١.

ويرسم أبو شاور في "العشاق" صورة للأم الفلسطينية القروية البسيطة التي هي أم الجميع، فأم حسن، إحدى أمهات العشاق، هي أم لكل الشباب المناضلين الواعدين. أم لكل عشاق فلسطين، فها هي تستقبل أحدهم، وهو صديق ابنها، ساعة خروجه من السجن، بالأحضان بعد أن ناداها "يما أم حسن! رفعت رأسها فرأته. قفز عن حافة الحفرة، فانتزعت جسدها من الطين، وفردت ذراعيها، أسند رأسه على كتفها، فأخذت تتأرجح مع جسده وهي تقبله، وابتعدت عنه، وعادت تقبله (قائلة) السجن لا يميت الرجال. وأخذت تتحسس منكبيه.."<sup>(٣٨)</sup>.

وهذه "أم محمود" تستقبل أحد الشباب الثوريين من أصدقاء ابنها، بعد أن خرج من السجن: "دفع الباب، وتوقف. أدار عينيه في أرجاء البيت، طلعت أم محمود من المطبخ فرأته واقفاً، بهتت، عقدت الدهشة لسانها. فتح ذراعيه وأمال رأسه وأعلن: بالأحضان أيتها الأم الطيبة. تحركت كأنها تسير نائمة، وانفجرت بالبكاء، تركته وتراجعت مبتعدة عنه، وبصوت أجش طافح بالأسى قالت: ماذا فعلو بك يا زياد؟ هز رأسه، ثم عاد وعانقها: كنت أتذكرك أكثر من أبي وأمي"<sup>(٣٩)</sup> وفي "بوصلة من أجل عباد الشمس" لليانة بدر (١٩٧٩) تطالعتنا شخصية "سليمة الحاجة" الأم البسيطة الطيبة التي شملت بعطفها وحنانها أطفال الوطن وشبابه، من المناضلين الثوريين. فحين اعتقل ابنها إثر حوادث أيلول مع ثلة من رفاقه، بذرت شيخوختها على أعتاب الدوائر الحكومية في عمان، طالبة الإفراج عن ابنها وعن رفاقه<sup>(٤٠)</sup>. فأمومتها لم تقتصر على ابنها فقط، وإنما شملت جميع أبناء الوطن.

ونقع في الرواية نفسها على شخصية "أم محمود" التي تتجاوز بأمومتها حدود البيت والأسرة، لتشمل أولئك الذين يعملون دون كلل أو ملل، من أجل أبناء وطنهم المنفيين في مخيمات الأسى والشقاء، فإذا بهم يلوذون بأمومتها الدافقة حين تكسرههم الغربة والوحشة، وإذا بصوتها الدافئ الحنون ينزع عنهم آلامهم وتوجساتهم، كما يتجرد الموج على الشاطئ من زبده وطحالبه<sup>(٤١)</sup>.

\*\*\*

على هذا النحو كانت العلاقة بين الأم الفلسطينية وأبناء الوطن، نابضة

(٣٨) -العشاق ٥٧.

(٣٩) -المصدر السابق ١٥٠.

(٤٠) -ينظر: بدر، ليانة: "بوصلة من أجل عباد الشمس" دار الثقافة. القاهرة ط خاصة/ ١٩٨٩ ص ١٠٨.

(٤١) -ينظر: المصدر السابق ٨٥.

بالحب والمودة والاحترام والصدق الإنساني. فمع الأم الفلسطينية وتحت أجنحتها الملائكية، يتحول أبناء الوطن إلى أسرة متماسكة، تتشد هدفاً سامياً هو تحرير الأرض من مغتصبيها.

هكذا حرص الروائي الفلسطيني على أن يقدم بأمانة ودقة، صورة واقعية للأمم الفلسطينية الصابرة المضحية المحبة للحياة والأرض والعمل. المفعمة بالحميمية المطلقة تجاه الوطن وأبنائه الشرفاء. الوفية المخلصة للزوج، المربية الصالحة للأولاد. القادرة على القيام بشؤون أسرتها على أكمل وجه، وتحت أعنى الظروف وأشدها قسوة ومرارة. فلم يقدمها ضحية ارتضت بما انتهت إليه ولم يصورها سلبية تحافظ على المتعفن من الموروث، وتحرص على عدم الخروج عليه فتفضل الذكر على الأنثى، وتستجيب لأوامر الزوج المتعسفة ونواهيها، إلا نادراً<sup>(٤٢)</sup>.

### ٣- الأب وابنته:

شهدت الرواية الفلسطينية انحساراً ملحوظاً لصورة الرجل التقليدي -بعكس ما رأيناه من حضور واضح لصورة المرأة التقليدية -ولا سيما "الرجل الذي يصدر عن ذهنية ماضوية متكئة على الموروث الذكري الذي صاغه (الأجداد)، وكرسوا من خلاله عبودية المرأة واستلابها وسلبيتها ودونيتها لأنها ذات عقل ناقص وجسد فاضح"<sup>(٤٣)</sup>، إذ لم تفرز الطبقة الكادحة في الرواية الفلسطينية، أمثال هذا النموذج إلا ما ندر، إذ نقع في "العشاق" على شخصية أبي حسن الرجل المزواج، السادي، الذي كان يعرّي نساءه، وينهال عليهن ضرباً، ولا يتورع عن اللجوء إلى زواج المبادلة، فيزوج ابنته من فتى في القرية، ليتزوج أخت ذلك الفتى. ولكن هذا الورم الذي حاول أن يشوه الجسد الفلسطيني الكادح، وجد من يستأصله، فيجد من تفاعله، ويثبط نشاطه. إذ ترفع "أم حسن" إحدى زوجاته، صوتها في وجهه. وتعلن تمردها على سلطته أثناء ممارسته لنزعتة السادية على نساءه. فتنهال عليه ركلاً، وتمسك به من بين فخذه، فتجبره على الطلاق، وتكسر هيئته أمام زوجاته، وبذلك استطاعت أن تكسر شوكته، وتشل قدرته على ممارسة أي نشاط عدائي سلطوي على نساءه الأخريات<sup>(٤٤)</sup>.

في حين أفرزت الطبقة البرجوازية، هذا النموذج من الآباء، الذي يقوم بدور

(٤٢) -فعلی سبیل المثال نجد صورة "أم عادل" في الصبار، ووالدة عفاف في "مذكرات امرأة غير واقعية" نموذجاً للمرأة المستلبة الضعيفة التي ندر وجودها في الرواية الفلسطينية.

(٤٣) -القاضي، إيمان: الرواية السورية في بلاد الشام. الأهالي، دمشق ط ١٩٩٢/١ ص ١٦٥.

(٤٤) -ينظر: العشاق ٦٠-٦١.

المتسلط الظالم، فيعيق مسيرة الفتاة، ويقوض أحلامها منذ الطفولة، ويغرس فيها بذور التناقض بين ذاتها الفردية والذات الجماعية التي يباركها المجتمع ويتقبلها أفراده<sup>(٤٥)</sup>. ولعل رواية "مذكرات امرأة غير واقعية" لسحر خليفة. وهي واحدة من الروايات الفلسطينية القليلة التي اهتمت بهذا النموذج من الآباء، ولكنها أيضاً، من أبرز الروايات استيعاباً لقضية المرأة العربية التي تنتمي إلى الطبقة البرجوازية، وما يؤرقها ويقض مضجعها منذ الطفولة إلى ما بعد الزواج. وقد عزت الروائية كل ذلك إلى دور الأب التقليدي والمجتمع المتخلف، فحملتها جميعاً أزمة البطلة "عفاف" وضياعها في حمى الغربة ولجنتها. صحيح أن الأب لم يكن شخصية حاضرة في الرواية، إلا أننا نراه ونسمع صوته بشكل مكثف عبر ابنته عفاف، إذ تصفه بأنه متحجر القلب، متجلد القسامات، متجهم الوجه كان "يحب الكيف.. وتدرجياً كلما كبرنا تجهم وجه الوالد، وأصبح أكثر تزمناً ورصانة، وصار ينهرنا حين نفتح الراديو بحثاً عن أغنية عاطفية، أو مقطوعة راقصة"<sup>(٤٦)</sup>.

ترصد سحر إذا، علاقة الفتاة بأبيها منذ الطفولة، في مجتمع الطبقة البرجوازية، فتصور موقف الوالد من الصداقة القائمة بين طفله وابن الجيران. فهو رافض لمثل هذا النوع من الصداقة، وفي رفضه ذلك يعبر عن عادات متوارثة، وقيم اجتماعية متعارف عليها، قائمة على الفصل التام، والتمييز الصارخ بين الجنسين. ها هي ذي عفاف، تتحدث عن موقف والدها يوم رآها تقفز تحت المطر بمرح وسعادة مع ابن الجيران: "وفجأة ارتطمت بوجه الوالد، كان قد أقفل سيارته، وفتح مظلته السوداء، وهو يهرول نحو الدار. نظر إلي من تحت المظلة، توقفت عن الركض والضحك، وتحت نظراته، أحسست أنني أقوم بعمل مشين، فبدأت أنتفض من البرد، قال باقتضاب: عفاف!"<sup>(٤٧)</sup>.

وقد تنامي هذا الإحساس لدى عفاف حين أصبحت فتاة شابة، وشعرت أنها متهمه بأنوثتها، "متهمه مسبقاً وأصلاً لانتمائها للجنس العاجز"<sup>(٤٨)</sup>. والذي فجر حبها لديها هذا الشعور، وقوف أهلها في وجه حبها البريء. "أحببت ولداً كان يقول بنفور (لست ولداً أنا رجل)، وكنت أضحك من هبله، وكنت أدعه يمسك بيدي فأحس بأني أمه وأخته وملاكه. وما أحسست أنني وقحة. أو ربما وقحة من

(٤٥) - ينظر: شعبان، د. بثينة : "سحر خليفة وامرأة غير واقعية"، الموقف الأدبي، عدد ٢١٢-٢١٣ ص ٣٦.

(٤٦) - خليفة، سحر : مذكرات امرأة غير واقعية. دار الآداب ط ١٩٩٢/ ١٢٧.

(٤٧) - المصدر السابق ١٢٩.

(٤٨) - المصدر السابق ٤٠.

نوع آخر. نوع لا يخيفني بل يخيفهم، فقتلوني"<sup>(٤٩)</sup>. لقد قتلت حين حكم على حبها واختيارها بالموت قبل أن يرى النور. وبات عليها القبول بزواج معد سلفاً والقبول بواقع فرض عليها دون إرادة منها، فقاومتها من الداخل، ولكنها أخفقت في تخطيه 'فبقيت ممزقة بين العالم الذي ارتأته لنفسها، والعالم الذي فرض عليها. بين الحلم والواقع، فتقضي العمر موتاً بطيئاً. تعتمل في داخلها مشاعر الحب والحلم والحياة، دون أن تستطيع تحقيق ذاتها"<sup>(٥٠)</sup>.

وثمة مسوغات لدى الكاتبة في لجوئها إلى تعرية علاقة الأب بابنته، في الطفولة، ومرحلة الفتوة، وتصويرها لسلبية هذه العلاقة، وأثرها على طبيعة التكوين النفسي والاجتماعي والفكري للفتاة. ذلك أن من الأهداف الرئيسة التي تتوخاها الكاتبة في روايتها، كشف بعض سلبيات المجتمع التقليدي المتخلف، ونظمه الجائرة، التي تتعامل مع المرأة، بوصفها ضلعاً قاصراً. ولما كان والد عفاف، هو أحد ممثلي هذا التخلف، والمسؤول عن ضياع ابنته، كان من المنطقي أن تقف عنده الكاتبة، وهو الذي ينتمي إلى الطبقة المتوسطة سلبية الإقطاع. التي أدانتها في مجمل رواياتها. إذ نجدها في ثنائيتها (الصبار، وعباد الشمس) تسخر منها على لسان أحد أبنائها، وهو "عادل الكرمي" الذي يميظ اللثام عن عيونها، ويعري مواقفها الجوفاء، ويكشف زيفها وتناقضاتها، وتداعياتها من الداخل<sup>(٥١)</sup>، حين يتحدث عن والده الوجيه، الذي يصر على تزويج ابنته "نوار" من الدكتور "عزت" الذي يملك مالاً وفيراً، "ويقف الزبائن أمام عيادته كالذباب"<sup>(٥٢)</sup>. وهو يفضل على ابن أخته "أسامة" الشاب الثوري طريد العدالة والمخابرات الإسرائيلية، كما يصفه، من غير أن يأخذ في الحساب رأي ابنته، ومن تريد.

\*\*\*

وعلى العكس، من ذلك، نجد الروائي الفلسطيني يعلي من شأن الطبقة الكادحة، التي يعول عليها الكثير من الآمال في مسيرة الكفاح والتحرير. فعشاق "رشاد أبو شاور" ينتمون جميعاً إليها، وهم لذلك يؤمنون بالحب، ويدعون إليه، الحب بمفهومه الإنساني والوطني، الذي يجعل الإنسان جديراً بإنسانيته. لذلك، لا عجب أن نرى أبا خليل، والد "تدى" ذلك القروي البسيط، يكن لابنته المتعلمة والمعلمة، كل الحب والاحترام والتقدير. فلا يجبرها على الزواج ممن لا ترغب

(٤٩) - المصدر السابق ٢٥.

(٥٠) - شعبان، بثينة "سحر خليفة وامرأة غير واقعية" الموقف الأدبي، عدد ٢١٢-٢١٣ ١٩٨٨ ص ٣٧.

(٥١) - ينظر، الصبار ٢٠٧-٢١٧.

(٥٢) - الصبار ٢٠٨.

فيه، ولو كان ابن عمها. فحين يعرض حبيبها محمود عليها الزواج، ترجوه أن يؤجل طلبه حتى انقضاء عام على وفاة أمها، احتراماً لذكراها، ورأفة بوالدها، وتطمئننه بأنها ستكون صاحبة الرأي الأول والأخير في اختيار شريك حياتها. وتقول له ممازحة: "ربما يطلب أحدهم الزواج مني.. عندئذ أرفض. (يسألها) ووالدك؟ (تجيب): والدي يحبني ويحترمني، ولذا لن يفرض علي الزواج من أحدهم"<sup>(٥٣)</sup> وهكذا تبدو الطريق مفتوحة أمام محمود لخطبة "ندى" فحين يتقدم من والدها طالباً يدها يجيبه: "أنا موافق، ولكن يبقى الرأي لها، أليس كذلك؟"<sup>(٥٤)</sup>.

لقد استطاع كل من رشاد أبي شاور، وسحر خليفة، أن يصورا جانباً هاماً من العلاقة التي تربط الفتاة بأبيها، وما يميز تلك العلاقة. فكان هناك جوانب إيجابية وأخرى سلبية. أفرزتها طبيعة المجتمع، والطبقة التي ينتمي إليها كلا الأبوين. فوجدنا أن سليل الطبقة البرجوازية يتعامل مع ابنته في إطار مصالحه الشخصية، وفي ظل علاقات تقليدية بالية. فيبعدها عن تحب، ويكرهها على الزواج ممن لا ترغب فيه ولا تجده كفواً لها. في حين يتعامل الأب الكادح البسيط مع ابنته بأسلوب أكثر مرونة وانفتاحاً، وأصدق تعبيراً على ثقته وحبه واحترامه لابنته، ولرأيها في اختيار شريك حياتها وبناء مستقبلها، ولذا فهو يبارك علاقتها البريئة، ويدعمها، ويشجعها على الزواج من الشاب الذي ترتضيه لنفسها، ويناسبها اجتماعياً وخلقياً وفكرياً. حتى إذا ما غاب الوالد عن الحياة، لم يتحول غيابها إلى محض ذكرى أليمة في ذاكرة الابن أو البنت وحسب، بل إلى حافز للأولاد على مواصلة الكفاح من أجل التحرير<sup>(٥٥)</sup> .. وبمعنى آخر: ليس الأب المنحدر من الطبقة الكادحة "صنماً اجتماعياً بل قدوة يستلهم منها الابن كل إقدامه وشجاعته على التضحية"<sup>(٥٥)</sup>.

#### ٤- العلاقة بين الإخوة والأخوات:

وإذا ما رصدت الرواية الفلسطينية علاقات الأباء والأمهات بالأبناء والبنات، فإنها لم تهمل علاقة الاخوة والأخوات فيما بينهم. وقد شهدت هذه العلاقة تبايناً وتنوعاً، تبعاً لطبيعة المرحلة التي يتناولها الكاتب وطبيعة رؤيته، وكذلك تبعاً لطبيعة الشخصية ومستواها الفكري والاجتماعي.

(٥٣) -العشاق ١٣٩

(٥٤) -العشاق ٢٥٧.

(٥٥) -ينظر: "ما تبقى لكم" في الآثار الكاملة مج ١/١٨٩ والعشاق (١٢٣) والبكاء على صدر الحبيب (١١-١٢) وبوصلة من أجل عباد الشمس ١١-٥٩-٦٣. والصورة الأخيرة في الألبوم ١٥.

(٥٥) -صبحي، محي الدين: أبطال في الصيرورة، دار الطبيعة، بيروت ط ١/١٩٨٠ ص ١٧٨.

ففي زمن النكبة وما بعدها، ولد جيل من الشباب الفلسطيني المفجوع، الذي اكتوى بنار النكبة، وتجرع مرارة البؤس، ولكنه لم يستكن لواقعه. فجاءت "ما تبقى لكم" عام (١٩٦٦) لتعبر عن هذا الجيل الذي يمثله الأخوان مريم وحامد، اللذان ولدا في يافا. وقبل النكبة بأيام قليلة قتل والدهما، وحين أرادت الأسرة النزوح إلى غزة، حدث أن تأخرت الأم عن اللحاق بولديها، فأصبح حامد وأخته، التي تكبره بأعوام، في غزة، ولم يعرفا ما مصير أمهما، إلا بعد مرور أعوام، حين عرفا، من خلال المذياع، أنها في الأردن عند شقيقتها. وكانت مريم آنذاك تعيش مع أخيها تجربة الشتات المرة، والحرمان من الأم، بعد أن توفيت الخالة، وبقيت تكابد معاناة البؤس والقلق والانتظار الممض، انتظار الأم والزوج، وقد بلغت من العمر الخامسة والثلاثين، أما حامد الذي بلغ الخامسة والعشرين، فقد أصبح مدرساً في المخيم. وعلى حين أخذت مريم تحصي ما انقضى من عمرها، من الساعات والأيام والسنين المهذورة في لجة الانتظار المر، وهي تقوم بدور الأم بالنسبة لحامد. نجد حامداً، قد بات رجل البيت المحرم: "لقد كان دائماً رجلاً رائعاً.. ولكنه لم يكن أبداً إلا أخي. ومرور الزمن لم يكن يعني لديه شيئاً، فيما كان بالنسبة لي موتاً يعلن عن نفسه كل يوم مرتين على الأقل. بالنسبة له كنت أتحوّل كل يوم إلى مجرد أم، وكان يتحوّل كل يوم بالنسبة لي إلى رجل محرم، ولم يدرك قط طوال عمره أن لحظة ارتطام واحدة مع رجل حقيقي ستودي بنا معا. وأيضاً بعالمنا الجميل الصغير التافه الذي أجبرنا أنفسنا على اختياره. عالم تافه غير مستعد لقبول عانس أخرى.."<sup>(٥٦)</sup>.

وتجتمعت مريم مصادفة مع زكريا (النتن)، وهي بصحبة أخيها (حامد)، وكانا زميلين يجمعهما العمل في مدرسة المخيم، فيعجب زكريا بجمال مريم، وتناسق جسدها، ويحاول اصطيادها، بعد أن أدرك نقطة ضعفها الكامنة في حاجتها إلى رجل، قبل أن يفوتها قطار العمر. وتقع مريم فريسة سهلة في شباك زكريا، وتحمل سفاحاً، فيضطر حامد للموافقة على زواجها مكرهاً، بعد أن اعترفت له بعلاقتها مع زكريا. ويهرب "حامد" بعيد العرس من البيت، متجهاً من غزة إلى الأردن عبر الصحراء، باحثاً عن أمه، رمز الطهر والأمان والخلاص من دنس الحاضر.

وينطلق حامد متجهاً إلى الأردن، مخترقاً صحراء موحشة، من غير خوف أو تردد يدفعه شعور بالغضب والحزن والضيق، وكانت مريم الملوثة بدنس

(٥٦) - كنفاني، غسان: الآثار الكاملة مج ١/١٨٧.

السقوط بقرب زوجها، تحصي خطوات حامد على دقائق الساعة خطوة خطوة، وقد فارقتها النوم، وسيطر عليها الخوف والترقب.. حتى باتت تشعر بالانشطار بين زوج كريبه يطالبها بالإجهاض، هرباً من تحمل المزيد من الأعباء، وحرصاً على جسدها من الترهل، وأخ هارب يضرب في مجاهل الصحراء. بين ماض حزين يحمل معه الألم والمرارة، وحاضر بائس تعيس<sup>(٥٧)</sup>.

وهكذا فقد استحوذ حامد على تفكير أخته، ومشاعرها، ولم يبرح وجدانها لحظة واحدة. فقد عاشت معه، وله طوال تلك السنين التي أعقبت النكبة. ربتة صغيراً، وشهدت تقطعه ونضوجه، وكابدت معه الحزن والألم والانتظار. كان بالنسبة إليها الأخ والابن والصدیق. أما هو فقد كانت بالنسبة إليه الأخت الطيبة الوفية التي تستحق منه التضحية والإخلاص، كما "كانت بمثابة أم له، ولكنها حين تزوجت بات على حامد أن يرتد باحثاً عن أمه الضائعة. غير أنها هي الأخرى يحتمل أن تكون قد تزوجت فما العمل؟ الالتجاء إلى الأرض كحل للاشكال، ولكن الأرض مدنسة بالاحتلال هي الأخرى. فكان لا بد لحامد من مواجهة عالم كله دنس، وأن يرتطم بهذا العالم بصورة فاجعة"<sup>(٥٨)</sup> فكان التوجه نحو الأرض هو الحل المنطقي لأزمته.

وبما أن الأرض ملوثة أيضاً، كان لا بد له من حمل السلاح (السكين) أخيراً كحل وحيد للمشكلة. وهذا ما حصل فعلاً. إذ اجتاز حدود الأرض المحتلة في الليل، وواجه أحد الجنود الصهاينة في الصحراء، واستطاع أن يأسره. وفي الوقت نفسه، كانت مريم في بيت الزوجية في غزة، تعيش حالة من القلق والضياح بجانب زكريا النتن، ويساورها شعور بالخوف على حامد تقول: "واجتاحتي رعشة مفاجئة، فأخذت أنتفض، لقد حدث شيء ما له، في هذه اللحظة بالذات.. سيقول عني مجنونة لو أيقظته (تعني زوجها) وقلت له: "حدث شيء لحامد هذه اللحظة". لقد أحسست ذلك في أعماقي. وفي اللحظة ذاتها دفعني الفراش، فقمت وتحسست طريقي إلى المطبخ.. شربت فقط لأقوم بعمل أي شيء.. وهناك تحرك (الجنين) مرة أخرى. تلك الحركة الصغيرة الغاضبة، العابرة ولكن التي لا تنسى، فتوقفت متكئة على الباب، وسميته حامداً، وأخذت أبكي"<sup>(٥٩)</sup>.

وفي اللحظة التي يشهر فيها حامد سكينه اللامعة في وجه عدوه الصهيوني، ينشب بين مريم وزكريا شجار يكون النقطة الفاصلة بين الحياة والموت. يقول

(٥٧) -ينظر، الأشتر، عبد الكريم: دراسات في أدب النكبة. دار الفكر ط ١٩٧٥ ص ٤٤-٤٥.

(٥٨) -اليوسف، يوسف: "غسان كنفاني روائياً" المعرفة، دمشق عدد ١٩٧٦/١٧٢ ص ٦٥.

(٥٩) -كنفاني، غسان: الآثار الكاملة مج ٢١٦/١.

زكريا لمريم شاتماً، ناكراً عليها حقها في الأمومة: "هل حسبت أنني تزوجتك لتتجبي لي ولداً أيتها العاهرة؟.. إذا لم تستطعي إسقاط ذلك.. الصغير فأنت طالقة.. هل تسمعين؟"<sup>(٦٠)</sup> وتعلق مريم: "وانسد حلقي فجأة، فخيم صمت ثقيل مشحون بانتظار مر.. وفي اللحظة التالية جذبني إليه، ثم دفعني إلى الجدار، وقبل أن يستدير ارتطمت بالحائط، ولمعت أمامي بصلها الطويل المتوقد فوق الطاولة، فردني الجدار إليها كأني لعبة مطاط واحتوتها قبضتاي معاً.. واندفعنا مرة واحدة. ونحن ننظر في عيني بعضنا مباشرة، كان النصل مندفعاً من بين كفيّ المحكمتين الإغلاق وأحسست به حين ارتطمنا يغوص فيه"<sup>(٦١)</sup>.

وهكذا، تقتل مريم زكريا رمز الخيانة، وتتخلص مما لحق بها من ذل وعجز، على حين يواجه حامد الجندي الصهيوني فيجرده من سلاحه، متحياً الفرصة المناسبة لقتله، فيسجل الأخوان بذلك، انتصاراً على نفسيهما وحياتهما الذليلة في وقت واحد. وفي لحظة مصيرية واحدة.

\*

ونقع على نوع آخر من العلاقة بين الأخت وأخيها في "أيام الحب والموت" (١٩٧٣) لرشاد أبي شاور. وهي علاقة قد تتعدى إطار الاخوة لتصل إلى حدود التقديس.

تعالج الرواية "الماضي الفلسطيني قبل وأثناء ١٩٤٨ حيث توزع هذا الماضي بين أيام للحب قليلة وأخرى للموت كثيرة. كان الحب متمثلاً في تلك العلاقة الحميمة القائمة بين المواطن وترابه، وتلك اللحظات الإنسانية المليئة بالود والحنان البريئين بين أفرادهم. أما الموت فقد جاء مع الهجمة الشرسة التي قادها الإنكليز متواطئين مع الحركة الصهيونية إعداد للبلاد وطناً قومياً لليهود على حساب أهلها وترابهم القومي"<sup>(٦٢)</sup>.

يبدأ أبو شاور الحديث عن الأخوين بقوله: "كان لمحمد أبو عمران أخت اسمها حلوة، وكانت البنت مثل النقطة في المصحف. لها وجه كما البدر، وعينان دعجاوان، وقامة مثل النخلة، وصدر ممتلئ فائر، وكانت حلوة في حوالي العشرين، تصغر شقيقها بخمسة أعوام"<sup>(٦٣)</sup>. وكانت تتمتع بشخصية قوية ومؤثرة، ونظرات قاسية، وعزيمة لا

(٦٠) -المصدر السابق ٢٢٩.

(٦١) -كنفاني، غسان: الأثار الكاملة مج ١/٢٢٩-٢٣٠.

(٦٢) -أبو مطر، أحمد: الرواية في الأدب الفلسطيني ٢٠٧.

(٦٣) -أبو شاور، رشاد: أيام الحب والموت، دار العودة، بيروت ط ١ ١٩٧٣ ص ١٩.

تلين.. لقد أطارت بجمالها "لب أكثر من رجل، وتقدم لخطبتها أكثر من رجل، لكنها كانت ترفض قبل أن يتزوج شقيقها، وتجد رجلاً- قد حاله- توافق على أن تكون له زوجة، وكان الشيخ هاجم يلاحق حلوة بنظراته، لكنها ما كانت تعيره انتباهاً. وكانت نظراتها القاسية تتغرس في وجهه وعينييه، فتجمده وتجعله يرتبك، ويلوي رأسه، وهو يتأوه ويداعب شاربيه.. متكرراً<sup>(٦٤)</sup>. وحين يقف محمد أبو عمران "أخو حلوة" محرضاً الرجال على الثورة ضد طغيان هاجم ورجاله.. توارزه حلوة في اليوم التالي، وتستشير عزيمة رجال القرية ونخوتهم. فبعد أن حضر هاجم ورجاله "اقتربت حلوة منه، حددت نظراتها في عينييه، فابتسم لها، لكن وجهها كان يقطر سماً، أطلقت صرخة هائلة، جعلت هاجم يجفل، وبدنه يرتعد: وبين الرجال.. باطل، نسوان أنتو وإلا رجال... رفعت ثوبها عن فخذيهي الناصعتين.. صرخت: باطل يا رجال.. اركضو راحت، عرضكو راح.. انقض محمد أبو عمران صارخاً كما الرعد: أنا أخوكي يا حلوة.. وغرس خنجره في صدر هاجم، وانقض الرجال على جماعة (هاجم) بالخناجر والعصي والفؤوس، وسال الدم، وتطايرت الرؤوس.. ودارت المعركة حتى انتصف النهار.. ويحكى أن حلوة حملت شقيقها الجريح على ظهرها حتى وصلت إلى قريتهم "تكرين" وما إن وصلت حتى كان الرجل قد فارق الحياة، فحضرت له قبراً ودفنته في أرضهم قبل أن تحضر جماعة هاجم، ويأخذوا الجثة ويمثلوا بها"<sup>(٦٥)</sup>.

وأقامت حلوة فيما بعد مقاماً حول القبر، كأنه مسجد، ولكن بدون مؤذنة،... ولما كبرت، وخطط الشيب رأسها، وصارت ملامحها وقورة، تقدم لخطبتها سلمان عارضاً الزواج عليها أمام أهل القرية، وكان صديق شقيقها، عندها "أجالت حلوة نظراتها في الرجال الواقفين حولها، وظلت ساكئة برهة من الوقت، ثم قالت: أقبلك يا سلمان أنت صاحب أخوي، ورجل بتحب الأرض والناس، وشهم.."<sup>(٦٦)</sup>.

هنا تتجاوز علاقة الأخت بأخيها حدود النسب، ورابطة الدم، حدود العلاقة العادية، والصلة الاجتماعية التي تجمع الأهل، عادة، تحت سقف واحد، وحول مائدة واحدة، فلم تعد محض علاقة اجتماعية وعرض وثأر وكرامة، بل أصبحت رمزاً للوفاء للأرض والوطن من جهة، وإدانة صارخة للعمالة والخيانة من جهة أخرى. أصبحت علاقة الأخت بأخيها علاقة قريبة من الرمز وقيمه، حين تلتحم بالأرض وتتوحد بها، وتتشعب بعبيرها، وتغوص في ترابها، لتزرع فيها بذور البطولة والتضحية والفاء. فمقام الشهيد أصبح نبزاً، ودليل هداية، وعلامة

(٦٤) -المصدر السابق ١٩.

(٦٥) -المصدر السابق ٢٢.

(٦٦) -أيام الحب والموت ٢٥.

مضيئة لكل الأبطال الحقيقيين الذين يريدون العبور نحو فلسطين، نحو أرض حرّة من كل أشكال الإرهاب.

\*

وإذا كانت "أيام الحب والموت" قد وضعت علاقة الأخت بأخيها في إطار شبه رومانتيكي، مثقل بـ "نفس تراثي مؤثر، يتجلى بعضه في تقاليد الفروسية العربية.. حين تستهض المرأة هم الرجال لأن يثوروا لكرامة أعراضهم"<sup>(٦٧)</sup> فإن رواية "العشاق" قدمت العلاقة الأخوية في مستويات متعددة، فهناك العلاقة العادية، الخاضعة لمنظومة القيم والتقاليد الاجتماعية، وتمثلها علاقة أم محمود بأخيها المختار. فأم محمود، أرملة الشهيد، مضطرة للخضوع للقيم وللأعراف الاجتماعية، وما تفرضه عليها بشدة، فهي تدرك أن أخاها المختار على صلة باليهود، وبأجهزة الشرطة وبالمخابرات، وأنه المسبب في حبس ابنها "محمود" لكنها تتظاهر أمام الناس بغير ما يعتمل في صدرها، فترحب بالعمل المتواطئ على الرغم من احتقارها له ضمناً<sup>(٦٨)</sup>. فابنها محمود "يعرف أن أمه لا تمحض خاله (المختار) احترامها. لكنها تتظاهر أمام الناس. إذ لا يجوز أن تحتقر المرأة أهلها"<sup>(٦٩)</sup>.

وعلى الخلاف من ذلك، نجد علاقة "أم حسن" بأخيها أبي نعمان، تتجاوز حدود العلاقة الأخوية العادية، الخاضعة لأطر العادات والتقاليد، لتصبح علاقة أمومة وأبوة وبنوة وصدافة، وحب للأرض والوطن، يقول حسن: "لم يكن خالي أبو نعمان مجرد أخ لها، كان صديقها وشقيقها ووالدها وابنها"<sup>(٧٠)</sup>. والذي عمق صلتها به، وعلاقتها معه إلى درجة الانصهار والالتحام، هو حسه الوطني الرفيع، ومواقفه الشجاعة الصلبة، ورفضه الخنوع والخذلان والتواطؤ. فحين كان يعمل في حراسة مخازن توزيع المؤن في وكالة الغوث، رفض مراراً السماح لمدير المخيم ومساعدته بنقل المسروقات، كانوا يعطونه إجازة، ليتخلصوا منه فيعود في الليل "ويظل يدور حول المستودعات (ويقول) أنا حارس.. أكل خبزي من حراسة حقوق الناس، ولن أسمح بالسرقة حتى لو طردت، ألا يشبعون؟ إنهم يحصلون على

(٦٧) - عبد الله، محمد حسن: الريف في الرواية العربية. عالم المعرفة، الكويت عدد ١٤٣ ص ٢٦٣-٢٦٤.

(٦٨) - ينظر، زين الدين، أمل، وباسيل، جوزيف: تطور الوعي في نماذج قصصية فلسطينية. دار الحداثة، بيروت ط ١/ ١٩٨٠ ص ١٤٨.

(٦٩) - العشاق ٥١.

(٧٠) - العشاق ٢٦٧.

رواتب عالية، ومع ذلك يلاحقون اللاجئين على حفنة الطحين، وقطعة الصابون، ولحسة السكر" (٧١). وعندما فاض الكيل بلصوص المخيم من أبي نعمان ومواقفه النزيهة، اعتدوا عليه غدرًا، وشجوا رأسه، محاولين قتله، ومع ذلك لم يستسلم لهم. حتى إذا ما اشتعلت الحرب كان أبو نعمان، مؤذن المسجد، وحارس مؤن الجياح، أول الرافضين للهجرة، بقي في قريته إلى أن جندلته رصاصة الغدر الصهيوني، وهو يؤذن في الجامع، فإذا بأخته وشقيقة روحه، وصديقه وشريكته في الخلق والاستقامة والنزاهة والشجاعة والحس الوطني الحي.. تتحدى الحزن الذي استوطن كيائها، وتعلو على آلام الفقد، وتستوعب بشجاعة نادرة حقيقة الظرف الذي تعيشه، ورهبة الموقف الذي هي بصدده، فتخرط مع ابنها وصديقه، بصبر وشجاعة، في حفر قبر أخيها الشهيد، وتعاونهما في تسجية جثمانه في الحفرة، وإغلاقها، وإهالة الطين والتراب والحجارة عليها، ووضع الشاهدة التي لا تحمل اسماً، وتلاوة الفاتحة بأسى وحزن ولوعة، تدفعها إرادة قوية على الاستمرار والمضي قدماً في طريق الكفاح.. وإذا بها بعد أن خلفت المقبرة وراءها تتأهب لإعداد الشاي لأحبائها المناضلين، برأس معصوبة، وعينين محمرتين أقسما على نيل الثأر، ونجد "حسن" امتداداً لأمه في مناهضة الظلم والقهر، وفي علاقته مع أخته "حسنية" وموقفه منها، ومؤازرته لها، ووقوفه إلى جانبها، حين يستدعي الأمر.. فنراه رافضاً لتصرفات أبيه المزواج، ولبعض العادات والتقاليد البالية، المتمثلة في زواج المبادلة، وما يترتب عليه من سلبيات، وإجحاف بحق المرأة. فيقف موقفاً إيجابياً من أخته التي زوّجها والدها لفتى من القرية، وتزوج أخت ذلك الفتى. فحين طلب منه إجبار أخته على مغادرة بيت زوجها، لأن زوجته هجرته، وفضحته أمام ذوي أمرها، يرفض قائلاً له: "أختي ليست خرقة، إنها تحب زوجها، وهو شاب، أما أنت، فمقصّر في حق زوجتك" (٧٢)

\*

ومع امتداد الزمن، وتطور الحياة، وتفتح الوعي، تأخذ العلاقة الأخوية طابعاً أكثر ديمقراطية وتحرراً. ففي ثنائية الصبار وعباد الشمس (١٩٧٦-١٩٨٠)، تتابع الكاتبة سحر خليفة، التطورات الطارئة على البنية الاجتماعية والاقتصادية في الضفة الغربية، وما واكب ذلك من تطور في بعض المفاهيم الاجتماعية و"المواقف الفكرية السياسية للجيل الجديد، الذي ملك وعيه في ظل القهر الإسرائيلي.. (الذي) أصاب النظام الاجتماعي الفلسطيني التقليدي بهزة عنيفة،

(٧١) -العشاق ٥٩.

(٧٢) -العشاق ٦٠.

وإن لم تكن مدركة بوضوح<sup>(٧٣)</sup>. وخير مثال على ذلك ما آلت إليه الطبقة البرجوازية، سلبية الإقطاع، من تهتك وانهايار وجمود وعزلة، متمثلة بأبي عادل الكرمي الذي يعيش بفضل (الكلية الصناعية) ويحيا على أمجاد الماضي. إنه "بقية البرجوازية الفلسطينية التي تتشبث بموقعها غير متنبهة للزمن الذي تغير ونبذها، والكاتبة تصورها مكروهة حتى من وريثها الطبيعيين، لا لأنها ضد الفطرة، وإنما لأنها ضد الواقع المتغير"<sup>(٧٤)</sup>. يصف عادل الكرمي دار العائلة بقوله "هذه الدار الهرمة لا تنتج إلا المرض والجبن"<sup>(٧٥)</sup>. و(يضمّر الابن الأصغر "باسل".. الكراهية والتحدي لهذا الأب، ولكل صور الخنوع والعجز. أما نوار فتصف مؤتمرات أبيها الصحفية بأنه "يتسلى")<sup>(٧٦)</sup> وتصف دارها بأنها "لا تجاري روح العصر"<sup>(٧٧)</sup>.

هذا التطور الذي طرأ على المفاهيم الاجتماعية في الأرض المحتلة، يتجلى بصورة واضحة حين يحاول "أبو عادل" ممارسة سلطته ليفرض الزواج على ابنته "نوار" من الدكتور عزت، فيتصدى له كل من عادل وباسل، ويقفان إلى جانب أختهما، داعمين موقفها، فيقول عادل لأبيه: "دع الفتاة تدافع عن حقها في الحياة، دعها تتعلم كيف تجابه الأمور بحزم"<sup>(٧٨)</sup> ثم يردف معبراً عن احترامه لأخته- وللمرأة- ولرأيها واختيارها "أرجو أن تدافع الفتاة عن كرامتها، وإذا لم تفعل فهي لا تستحق الكرامة، ولتدخل عالم الحريم غير مأسوف عليها"<sup>(٧٩)</sup>. ويقف "باسل" الشاب الثوري الذي عرف طريقه، فانضم إلى صفوف المقاومة داخل الأرض المحتلة، موقفاً أكثر جرأة وثورية، حين يبارك العلاقة العاطفية القائمة بين أخته "نوار" وصديقه صالح. يقول لها: "أتظنين أنني لا أعرف قصتكما، الجميع يعرفون، فكيف لا أعرف أنا؟ ولا تتسي بأنه لا أسرار في مدينتنا.. طأطأت ولم تعلق.. قال مشجعاً: صالح رجل لا كأبي رجل، وهو جدير بكل التضحيات، ولكن هل ستواظبي على الكتابة إليه، وزيارته بالرغم من كل الاحتمالات"<sup>(٨٠)</sup> إنه يتقهم بوعي الإنسان الثوري المثقف، طبيعة العلاقة التي تربط أخته نوار بصديقه

(٧٣) - عبد الله، محمد حسن: الريف في الرواية العربية ٢٨٥.

(٧٤) - المرجع السابق ٢٨٥.

(٧٥) - الصبار ٢٠٧.

(٧٦) - عبد الله، محمد حسن: الريف في الرواية العربية ٢٨٦

(٧٧) - الصبار ٤١.

(٧٨) - الصبار ٢٠٧.

(٧٩) - المصدر السابق ٢٠٨.

(٨٠) - المصدر السابق ٢٠٠

"صالح"، فيشجعها برحابة صدر، ويعبر عن ثقته بهما، ويحثها على مصارحة والدها، والتشبث برأيها والدفاع عن اختيارها مهما كانت النتائج. وها هو ذا يحاول استفزازها بعد ما رأى من خنوعها وضعفها ما دفعه إلى إعلان الحقيقة أمام والده بكل جرأة وتحذ: "وفجأة بدون مقدمات سمع نفسه يقول بصوت تقريري كمن يقرأ نشرة أخبار: نوار الكرمي تحب صالح الصفدي. لكنها لا تعترف بهذا. وقد وعدته بانتظاره طوال مدة سجنه، هذا إذا استمر الاحتلال، أما إذا لم يستمر فستتزوج به بالرغم من كل واحد فيكم، وبالرغم من والدها قبل الجميع.. نوار الكرمي تحب صالح الصفدي ولا ترغب في الزواج من أي رجل آخر، ولكنها جبانة، أجبين من أن تواجه الآخرين بذلك.. وواصل.. بنفس اللهجة التقريرية: نوار الكرمي تحب صالح الصفدي وتكتب له الرسائل.. وتزوره في السجن.. ولن تتزوج من أي رجل سواه.. ولا أعرف كيف يحب أي مناضل فتاة مائة كنوار الكرمي. وصاحت نوار وهي تهب واقفة: بلى سأتزوج منه. أنا لن أتزوج إلا من صالح حتى ولو انتظرته مئة سنة"<sup>(٨١)</sup>.

\*\*\*

هكذا "تؤدي ثورة الأهلين في الأرض المحتلة إلى تثير العلاقات الاجتماعية"<sup>(٨٢)</sup> و"هكذا كان على الرجل الثوري حقاً إما أن يعيش موقفه الثوري بمصادقية، بما في ذلك موقفه من المرأة، وإما أن يعلن انسحابه من المعركة ككل، الأمر الذي يعتبر بدون شك خزيًا وطنياً واجتماعياً"<sup>(٨٣)</sup>.

وفي ضوء ما تقدم يمكن القول: إن الروائي الفلسطيني برع في تقديم صورة مشرقة معافاة وصحيحة للعلاقة الأخوية التي تسودها روح المحبة والاحترام، وتتنقي منها كل معاني السطوة والظلم والقهر والتبعية والكبت والذل.

فبدت الفتاة، هنا، كأخيها، إنسانة حرة واعية نقية عفيفة محبة للأرض والوطن، وفيه للأسرة، تمارس حقها المشروع في التعبير عن رأيها اتجاه القضايا التي تهمها، تستنهض الهمم، وتثير الحمية، وتستعمل السلاح حين يتطلب الموقف الوطني ذلك، فإذا ما بدرت منها ذلة أو سقطة، سارع أخوها إلى إنقاذها وتوعيتها والأخذ بيدها، بأسلوب مفعم بعبق الأخوة الحقيقية النقية الأصيلة.

## ٥- العلاقة بين الأزواج:

(٨١) - الصبار ٢١٤-٢١٦.

(٨٢) - شعبان، بثينة "سحر خليفة وامرأة غير واقعية" الموقف الأدبي، عدد ٢١٢-٢١٣ ص ٣٣

(٨٣) - المرجع السابق ٣٤

يستطيع دارس الرواية الفلسطينية أن يميز نوعين من العلاقة الزوجية: النوع الأول، يتسم بالمودة، والرحمة والألفة والانسجام. أما النوع الثاني، فيتسم بالقلق والتنافر والجفاء، وفيما يلي سنفصل الحديث عن هذين النوعين، كل على حدة.

### أ- علاقات مودة (حضوراً وغياباً):

يرى الباحث في الرواية الفلسطينية أن المساحة التي شغلها العلاقات بين الأزواج، لم تكن كبيرة قياساً إلى المساحة التي شغلها علاقة الأم بالأولاد. والسبب في ذلك يعود إلى أن الأسرة الفلسطينية، منذ ما قبل النكبة وما بعدها، لم يقدر لها أن تعيش بسلام، فالانتداب البريطاني، ومن ثم الاستيطان الصهيوني، وما جر ذلك من ويلات وفجائع، حتمًا على الأزواج أو رجال فلسطين الحقيقيين، حمل السلاح للدفاع عن حياتهم وأرضهم وشعبهم<sup>(٨٤)</sup>. فكان أن استشهد الكثيرون مخلفين وراءهم ثكالي ویتامی، مما حتم على الأم الفلسطينية القيام بواجب إضافي هو الأبوة<sup>(٨٥)</sup>.

فلسمان عباس في "العشاق" يدرك أن لا مستقبل له إلا على أرضه، لذلك يقرر الجهاد، ويسقط مع كثير من المجاهدين في صدام مع الرجعية العربية، وقوات الاحتلال الإنكليزي والصهيوني، فيقتل على الحدود عام ١٩٥٥، ويترك خلفه زوجة وأطفالاً صغاراً بلا معين، بلا مال أو بيت أو أمان، ولكن الزوجة تصبر وتصد، وتندّر نفسها لولديها، دون أن تتزوج، فتستطيع أن تربيهما خير تربية إلى أن أصبحا شابين واعدین. فموت الزوج مبكراً إذا، لم يدع مجالاً للوقوف بشكل مفصل على العلاقة القائمة بينه وبين زوجته، إلا من خلال تداعي ذكريات ابنهما محمود، ومن خلال هذا التداعي، نستطيع رسم صورة مشرقة لهذه العلاقة الدافئة، التي يغمرها الحب والتفاهم والتضحية والإيثار والإخلاص والاحترام والوفاء<sup>(٨٦)</sup>.

\*

ونقع على مثل هذا الغياب للزوج في "أيام الحب والموت" إذ يستشهد عبد الله الشتايرة على يد البريطانيين، بمساعدة عملائهم المحليين الممثلين في الإقطاعي

(٨٤) - للمزيد ينظر: أبو بصير، صالح مسعود: جهاد فلسطين خلال نصف قرن. دار الفتح، بيروت ط٢/١٩٦٩ ص/٣١٧-٣١٨، ٣٣٩، ٣٤٣.

(٨٥) - ينظر على سبيل المثال: عناصر هدامة، يوسف الخطيب ١٩٦٤، وحفنة رمال: ناصر الدين النشاشيبي ١٩٦٥ وأقوى من الجلادين: رجب الثلاثيني ١٩٦٦، وحرارة النصارى: نبيل خوري ١٩٦٩.

(٨٦) - ينظر العشاق ٨٤.

"داهم العاونة" ويستشهد محمد الرابع، وعبد الله سلمان (الفلاح) على يد اليهود بمساعدة البريطانيين. وفي الحاليتين تتم الشهادة دفاعاً عن الأرض. مخلفين وراءهم زوجات وأبناء، يحاولون هم أيضاً حمل شعلة الكفاح، ومواصلة طريق النضال.

\*

وفي "الصورة الأخيرة من الألبوم" يرسم أماننا شكل آخر من أشكال الموت الفاجع، فعندما صادرت سلطة الاحتلال الصهيوني القطعة الخصبة من أرض والد أمير "تحول والده من مزارع صغير إلى عامل بناء، كانت هذه الصنعة جديدة عليه، لذلك لم يسيطر جيداً على توازنه فوق السقالة المعلقة على جدار الطابق الرابع في نتانيا.. وهبة الريح الشتائية تلك كانت كافية للتطويح به من أعلى السقالة ليهوي على أرجوحة الأطفال المنصوبة حديثاً في حديقة البناية الجديدة.. شطرته الأرجوحة المعدنية شطرين... ابتلعت الريح الشتائية صرخة رعبه المنفجرة في الفضاء كعبوة ناسفة، وابتلع التراب الباقي من جثته الممزقة..."<sup>(٨٧)</sup> غير أن المساة التي حلت بالأسرة، لم تثن الأم وأبناءها عن التشبث بالحياة، والعمل البناء، بعزيمة وطيدة.

\*

ونلتقي في "البكاء على صدر الحبيب" بأرملتين أخريين، هما أم زياد، وأم غالي، ونتعرف على استشهاد زوجيهما من خلال ذكريات أبنائهما. يقول زياد: "كنت في السادسة، أذكره جيداً، كان يرئدي بذلة كالتي يرتديها الجنود، أذكر أنها كانت خشنة مثل لحيته التي لم يكن يحلقها في تلك الفترة، حملني بين يديه، وقبلني في جبيني، ثم في خدي، ضغطني إلى صدره، وقال لي: وفي عينيه حزن يمتزج بالفرح، كن شاطراً.. ثم أنزلني من بين يديه، ولصق جسده بجسد أمي، كانت أمي تتشبث به، تريد أن تصير عضواً في بدنه، لكنه أبعدا عنه. إني لأذكر جيداً. قال لها بلهجة أمرة فيها رجاء: ديري بالك عليه.. ورحلنا... وظل والذي هناك، أخبرونا فيما بعد أنه.. مات مع الرجال"<sup>(٨٨)</sup>. أما غالي فيعرفنا على موت والده من خلال مخاطبته لصورته: "كنت تذهب وتعود، ومعك نقود وملابس لي ولأمي، ثم رحلت ولم ترجع، وجاء من يقول لأمي: البقية في حياتك. أنت

(٨٧) - الصورة الأخيرة من الألبوم ١٥

(٨٨) - البكاء على صدر الحبيب ١١-١٢

تعرفين أنه كان يعمل مع مجموعات الاستطلاع، لقد استشهد." (٨٩).

\*\*\*

فغياب الأزواج إذأ، ظاهرة لافتة للنظر في الرواية الفلسطينية، وليس من الضروري أن يكون هذا الغياب ناتجاً عن الموت الطبيعي أو الاستشهاد، فقد يكون الزوج حاضراً غائباً في الوقت نفسه، نتيجة لظروف اجتماعية تعانيتها الأسرة في ظل ظروف سياسية معينة، فزوج أم سعد في رواية "أم سعد" حاضر أشبه بالغائب، بل لعل غيابه يمثل راحة لزوجته التي عانت من جفائه وسوء خلقه، الشيء الكثير. فعالم الهزيمة يشد عليه الخناق ويحكم الوثاق، أما الفقر وبطاقة الإعاشة فيزيدانه رهقاً. وأم سعد تعي كل ذلك، ولهذا تصبر وتتحمل، إلى أن تأتي البنادق إلى المخيم، وقتها فقط، تنهار العلاقات القديمة بكل قبحها وقسوتها، لتصنع الثورة علاقات من نوع آخر، أكثر دفناً وحميمية ونضجاً.

\*

وفي "سداسية الأيام الستة" وتحديداً في اللوحة الثالثة، نقع على شكل آخر من أشكال الغياب وفرقة الأزواج، فعلى حين أصرت أم الروبايكا على البقاء مع والدتها المقعدة زمن النكبة، نجد زوجها قد نزع مع أولادهما في سفر الخروج الأول، وحين توفيت والدتها بعد خمس سنين من ذلك، رفض الزوج التعرف على زوجته، وأعلن عدم رغبته في عودتها إليه، أما هي فأظهرت عدم رغبتها في الهجرة من بيتها.. وظلت طوال "عشرين سنة في دارها، في حي وادي النسناس بحيفا.. مؤكدة انتماءها للوطن، تماماً، كما أكدت ولاءها للأبناء وللماضي - تاريخاً وتراثاً- حيث راحت تجمع المخلفات، وتبيع كل شيء، وتبقي على الكنوز" (٩٠).

وبعد الخامس من حزيران، تلتقي أم الروبايكا بزوجها وابنها اللذين عادوا ليمارسا جميعاً طقس العشق الحقيقي، عشق الأرض والوطن. وتتباحث مع زوجها فيما تستطيع أن تقدمه من مساعدة لإطلاق سراح ابنهما المعتقل، وهو طبيب شاب متحمس، اتهم بتوزيع المنشورات في القدس القديمة. ولا تخفي "أم الروبايكا" إعجابها بزوجها، وحبها له، إذ استطاع تربية ابنهما خير تربية، إلى أن أصبح طبيباً وثائراً<sup>(٩١)</sup>. ضاربة الصفح عن الماضي وأخطائه، متجهة نحو آفاق جديدة،

(٨٩) - المصدر السابق ٣٤.

(٩٠) - بيسو، عبد الرحمن: استلهام البنيوع ٢٤٠

(٩١) - ينظر، سداسية الأيام الستة ص ٢٦.

وهي تنشد معهما تحقيق الذات، وتأكيد الهوية، وتحرير الأرض.

\*

وبرشاقة وعبوة عميقتين، وبساطة محببة وإعجاب كبير، يحكي "يحيى يخلف" في "نشيد الحياة" (١٩٨٥) عن الأزواج الطيبين المخلصين، سواء منهم من كان غائباً أو كان حاضراً، فأبو كامل يتزوج "زليخة" ثم يهجرها سنوات طويلة لا تدري عددها، ويبيض شعرها، دون أن تدري أين ذهب ولماذا وكيف؟ "في البداية حقدت عليه. كرهته. تمننت له الموت البشع. لكن مع مرور الأيام، بدأت تشفق عليه، بدأت تحزن. صارت تتمنى عودته سالمًا.. اعتقدت طويلاً أنه سيأتي ذات يوم تسبقه عكازه.." (٩٢) وعدت أولاد الحارة بالحلاوة، لوهم بشروها بعودته. كبر الأولاد وأصبحوا شباباً ولم يعد، غاب مع من غاب من الأهل والأحباب ومهج القلب (٩٣).

إن حالة (الانتظار والأمل في أن تحدث معجزة، ويأتي مع الأيام الشيء العزيز الذي طال انتظاره، يشكّل نغمة رئيسية في "نشيد الحياة") (٩٤). ولكن أبطال هذه الرواية لا يستسلمون للحلم والانتظار، إنهم يعيشونه، ويمارسون، في الوقت نفسه، دورهم الفاعل على أكثر من صعيد. فزليخة تعيش أقسى حالات الانتظار، ها هي تنام بعد أن هدها التعب والنعاس، لتري في منامها زوجها.. أبا كامل "جاء بعد غياب طويل يسبقه صوت عكازه. دق الباب ففتحت له. دخل مهيباً رزيناً، واسع الصدر.. مد إليها يده، فتناولت اليد، وانحنى لتقبلها. سحب يده، ومسح بيده الأخرى على رأسها فنبكت. وجثت على ركبتيها، جلس لكي يخلع الحذاء، ثم قال لها.. سئمت الغربة والتجوال، تعبت من الرحيل المتواصل، وقررت العودة إليك يا زليخة. قررت أن أعود، وأقبل شعرك الأشيب، وأقضي بقية عمري رهن إشارتك، قررت أن أطلب منك الصفح والمغفرة، لقد تحملت الكثير، وأنت تنتظرين عودتي أيتها المباركة، فليغفر الله لي، لأنني هجرتك طوال هذه المدة.. واستيقظت فجأة.. على صوت الريح.. على الخواء والفراغ واليأس، تبدد الحلم.. وانخرطت في بكاء علني، لماذا ذهب سريعاً. لماذا لم ينتظر حتى تقول له، إنها بكت حتى لم يبق في عينيها دموع" (٩٥).

لكن الزوجة تستطيع بقوتها، وإيمانها وصبرها، أن تخلق توازناً مع الحياة،

(٩٢) - يخلف، يحيى: نشيد الحياة، دار الحقائق، بيروت ط١/١٩٨٥ ص٦٢.

(٩٣) - ينظر المصدر السابق ٦٢.

(٩٤) - الراعي، علي: الرواية في الوطن العربي، دار الناشر العربي، القاهرة ط١/١٩٩١ ص٢٣٨.

(٩٥) - نشيد الحياة ٥٩-٦٠.

فهي تعيش الأمل، وتمارس العمل. تربي دجاجاتها الثلاث، وكأنهن بناتها. تطلي حيطان منزلها "بالشيد" الأبيض، ليبدو جميلاً ناصعاً. تشارك في مراسم تغسيل رجل مجهول الهوية، قتل أثناء عملية قنص، ولا تتردد في المشاركة في تشييعه إلى مثواه الأخير، مع بضعة رجال آخرين. تهتم بمنزلها، وتزرع في ساحته النعنع والعطرة، وشجيرات الورد، معبرة عن حبها للحياة والجمال والناس، تماماً كحبها لزوجها وإخلاصها له وحنينها إليه.

مثل هذا الحب والإخلاص، والحنين للأزواج، نقع عليه في جنبات الرواية كلها، فالشايب الرجل الذي لا ينام. لا تقفأ تمر بخاطره ذكرى زوجته الوفيّة الطاهرة، صاحبة القلب الكبير، والروح المباركة، التي لم يشأ لها القدر أن تتجب، ومع ذلك كانت -كما يراها زوجها- خصبة في شخصيتها الكريمة، وأخلاقها النبيلة، لذلك عاش لها، وكانت هي أسرته. وبعد أن رحلت صارت الثورة أسرته. ومن خلال ذكرياته، نستطيع الوقوف على طبيعة العلاقة الحميمة التي كانت تربطه بزوجته، كما نستطيع الوقوف على السمات البارزة في شخصيتها المميزة.

\*

ومثل هذا الوفاء للزوجة، نجده لدى أبي خليل في رواية "العشاق"، إذ يخلف فراق زوجته في قلبه لواعج الحزن، ومرارة الأسى، فيعيش على ذكراها الطيبة، عازفاً عن الزواج، مكرساً ما تبقى من عمره لخدمة أبناء قريته الثوريين، من موقع عمله الذي ارتضاه لنفسه. وهو حين يجبر على الرحيل من مخيمه إلى مخيم آخر، بعد حرب حزيران ١٩٦٧، نجده يحرص على الاحتفاظ بملابس زوجته، فيضعها بحرص شديد في حقيبة الملابس، وينزل صورتها عن الجدار بعناية، ويدسها بين الملابس في الحقيبة، وينحني عليها بعد أن أغلقها، "كأنما ينحني على جثة عزيز"<sup>(٩٦)</sup>.

إن ما يُراد تأكيده، من خلال الحديث عن ظاهرة غياب الأزواج -وهو الغالب- أو الزوجات في الرواية الفلسطينية، هو أن الأسرة الفلسطينية، أبداً، مفجوعة بأحد قطبيها، منذ ما قبل النكبة، إلى ما بعد الغزو الصهيوني للبنان ١٩٨٢، وربما إلى يومنا هذا.

ومع أنّ الروائي الفلسطيني، لا يسعى إلى تقديم صورة قاتمة أو مأساوية للأسرة الفلسطينية، وقد فجعت بأحد قطبيها. إلا أنه يبقى محكوماً بالواقع السياسي والنضالي للشعب الفلسطيني. هذا الواقع الذي يتطلب من الأسرة الفلسطينية دفع

(٩٦) -العشاق ٢٢١.

المزيد من التضحيات الجسام يومياً. ولذا فإن الصورة المشرقة للأسرة بوجود قطبها على قيد الحياة، قلما نجدها، وإذا وجدت، فهي لا تستمر في الغالب، إلى النهاية.

\*

فعلى سبيل المثال، حاولت سحر خليفة في ثنائيتها (الصبار وعباد الشمس) أن ترسم لوحة واقعية للأسرة الفلسطينية. داخل الأرض المحتلة ممثلة في سعدية وزوجها زهدي وأولادهما. أسرة يسودها الحب والتفاهم والإخلاص والتعاون، على الرغم مما تعانيه هذه الأسرة، وسواها من الأسر، من ظروف بالغة القسوة نتيجة للسياسة القمعية اللإنسانية التي تتبعها قوات الاحتلال.

ويأبى واقع الاحتلال إلا أن يضع بصماته على هذه الأسرة، وكل الأسر الفلسطينية. إذ يجد الزوج نفسه في السجن، بسبب ضربه للعامل الإسرائيلي (شلومو) الذي استقره وأهانته. وتعاني الزوجة والأولاد، مرارة غياب رب الأسرة، ويعاني هو بدوره، صعوبة الفراق، وقساوة الحياة في زنزانة البؤس والشقاء. ويبقى الحلم يراود زهدي بالخروج إلى "عالم الحرية والناس. والشوارع المتوترة بالحياة والحركة. والشجر ونوار أيار. ورائحة العشب الساخن، وأشعة الشمس تحتضن الوجود"<sup>(٩٧)</sup> ويتحقق حلم زهدي، بإطلاق سراحه، فينطلق نحو بيته بخطواته الواسعة، يقفز الدرجات، وقلبه يضرب، يدفع الباب بقدمه، ويدخل.. "كانت سعدية. تشق الباب وتتنادي: مين؟ دفع باب الحمام والتحم بالجسم الساخن المبلل بالماء. وشهقت سعدية، وبكت، وتأملت وجه زوجها من خلال سحبات البخار والرعب مرسوم على وجهها الملفوح بسخونة الحّمّام وحرارة الانفعال.. وأخذ يقبل اللحم الساخن، ويغرز أنفه في عبير الصابون، وأمواج الأئوثة. دعيني أنسى.. حلمت كثيراً، حلمت، لكنني لم أحلم بقاء أسخى وأكرم. هذا الصدر، وتلك العجيزة، شواطئ الأمان اليتيمية في بلد محتل.. وهذا الكنز يذكرني بقلاع لا يغزوها دخيل. والأرض الخصبة تتلقف البذار، وتحيله غزارة في الإنتاج والاستهلاك. وعندما يتغيب المنتج عن موقعه تجوع أفواه في مواقع أخرى، وتتساقط الأساور عن الزنود المكتنزة. أين الأساور يا سعدية؟ طارت جميعها؟ سأشتري لك غيرها، وسياكل الأولاد كثيراً. غداً أنزل غرباً أبحث عن عمل. ما زالوا بحاجة لأيدينا، يضمنون سكوتنا. ولكّني تعلّمت كيف أسكت بحذق، وأتكلّم

(٩٧) -الصبار ١٨٦.

بحذق.. آه يا سعيدة. لماذا لا يتركني العالم لشأني.."(٩٨).

هذه الحياة البسيطة المتواضعة التي تحياها الأسرة، على الرغم مما يكتنفها من مشاق وقهر، باتت حلماً لدى زهدي وأمثاله من الطيبين المسحوقين، لكثرة ما يلاقيه الإنسان الفلسطيني الرازح تحت الاحتلال، من عنق وقسوة في تأمين متطلبات الحياة والصمود، في ظل الأساليب القمعية التي تمارسها سلطات العدو، بما فيها من قتل وتهجير واعتقال، وتجهيل، ومصادرة الأراضي، وهدم البيوت، وغير ذلك.

ففي مثل هذه الأجواء المتوترة الضاغطة، المشحونة بالقلق والخوف، الحافلة بالتحدي والصمود، يصبح الاستشهاد في سبيل الأرض والقضية والكرامة، هو الحل الأمثل لدى زهدي، ولا سيما بعد أن دخل السجن إنساناً بسيطاً طيباً، وخرج منه مناضلاً، يحمل وعياً جديداً.. وهكذا يُقتل زهدي بأيدي الجنود الصهاينة، أثناء إحدى العمليات الفدائية، مخلفاً وراءه زوجة وعيلاً ووعداً برحلة شقاء جديدة.

\*

وفي "تشيد الحياة" يقدّم يخلف صوراً متنوعة للأسرة الفلسطينية المتجانسة والمتماسكة، على الرغم من الهموم التي استنطوت في أعماق القلوب، ورغم المحن التي انتشرت في جنبات البيوت، والكآبة التي حطت فوق الصدور، فزادت الروح وجعاً على وجع. فيها هو ذا الزهيري، فرّان المخيم. يعود إلى بيته بعد يوم حافل بالعناء والأحداث، وهدير الحوامات المعادية، وذلك قبيل الاجتياح الصهيوني عام (١٩٨٢)، فتستقبله زوجته بكل الحب والمودة، وقد هيأت له كل وسائل الراحة: الماء الساخن، والثياب النظيفة، والطعام الجيد، والبيت النظيف.. اغتسل الزهيري طارداً الدبق والرطوبة والتعب، وبعض الغيوم السوداء من صدره. "أكل وشرب الشاي، ثم قدّمت له (زوجه) سيجارة وأشعلتها، كما تناولت سيجارة أخرى، وأشعلتها لنفسها.. إنّه لا تدخن ولكن عندما يكون المزاج رائقاً، تدخن معه سيجارة على سبيل الدلع. ثم قبلته في خده، كانت صغيرة.. قطعة، وكان كبيراً وضخماً، فتكاد تضيع في صدره. قال لها: والآن أريد أن أنام. السرير نظيف ومرتب، الوسائد المطرزة نظيفة ورائحتها طيبة. الأغطية مغسولة وشديدة البياض.

-رائحة غسيلك الطيبة تفوح كالعطر-

-وفي البيت رائحة حنّوك"(٩٩).

(٩٨) -الصبار ١٨٧.

(٩٩) -تشيد الحياة ص١٣٩.

هذا الحب الصادق المفعم بالمودة والرحمة والدفء والإخلاص، يبذله الأزواج بعضهم لبعضهم الآخر، في مجتمع متحاب ومتعاقد. يحلم أن يعيش في أمن وسلام وطمأنينة تحت سماء زرقاء وأشعة شمس دافئة. ولكن قوات الحقد الصهيوني تأبى إلا أن تأكل بأسنانها الحادة اللحم البشري، وتبقر بطن الأرض، وتدوس بأظلافها الفضاء الساكن، وتكبل الأفق، وتشعله باللهب، وتزرع القنوط في الوجوه، وتعيد من جديد دورة التهجير والظماً والموت البشع الذي ليس له مثيل<sup>(١٠٠)</sup>. الموت البشع الذي انتهى إليه الزهيري حين وقع في كمين نصبته له قوات الاحتلال الصهيوني، بالتعاون مع بعض الخونة المحليين، بغية الحصول منه على بعض المعلومات، لكنه يظل صامداً دون الإدلاء بما يريدون، فتكون عاقبته، أن يدفعه أحد الجنود إلى الخارج، ليعاني من سياط برد ما بعد منتصف الليل، وهو في حالة عري تام، إلى أن تهاوى "جثة هامة بوجه أزرق تيبست كل عضلة فيه.. وجه صامت أو غاضب، هادئ أو عاصف مثل رياح المحطات، الأصابع متشججة.. واقفة مثل مشط من الرصاص، والأنف الذي تعرض إلى اللكمات سال من فتحتيه دم تجمد.. العينان المفتوحتان فيهما زرقاة، حزن، صمت، دهشة، لعلهما عشيتا من طول انتظار الدفء، أو هجوم الأدغال الخضراء"<sup>(١٠١)</sup>.

هكذا بدت الأسرة الفلسطينية في الرواية الفلسطينية، مفجوعة دائماً بأحد أعمدتها أو قطبيها، إنها بقايا أسرة، ولكنها بقايا صامدة، تحاول جاهدة التثبيت بأحلامها، وبحقها في حياة حرة كريمة.

### ب-علاقات قلقة:

وهي العلاقات القائمة على أسس غير سليمة، منها: عدم التكافؤ، والتفاهم والانسجام بين الزوجين، وأكثر ما نفع عليها في أوساط الطبقة البرجوازية، التي تتاولها بالنقد والتعرية كل من سحر خليفة وجبرا إبراهيم جبرا.

ففي "مذكرات امرأة غير واقعية" تتناول سحر خليفة، من جملة ما تناولته في الرواية، العلاقة الزوجية المأزومة بين عفاف وزوجها. فقد أكرهت على الزواج من رجل لا تحبه، ولا ترغب فيه، دون استشارتها ورغماً عنها. كان الزواج عقوبة لها لأن أهلها اكتشفوا بين يديها رسالة غرام و"خلال شهرين كانت الدنيا قد انقلبت عاليها سافلاً.. حبست في الدار، قدمت امتحان التوجيهي كدراسة خاصة، بالكاد

(١٠٠) - ينظر نشيد الحياة ١٤٥.

(١٠١) - المصدر السابق ١٦٨.

نجحت، لم يبق لدي أي مبرر لرفض الزواج من رجل يملك مال قارون، ووسامة كمال الشناوي.. تزوجت وتعذبت<sup>(١٠٢)</sup> وقد أدرك الأهل خطأهم الفادح بعد سنتين من الزواج، إذ اكتشفوا ماضيه وحاضره ومستقبله "وعرفوا أنهم تسرعوا في الحكم، وأنهم عاقبوني على وقاحتي بما هو أشد من القتل"<sup>(١٠٣)</sup>. وتتساءل عفاف عن السبب الذي أوقعها في فخ الزواج "ألأنني واحدة من قطع بنات غير مرغوب فيهن، فاستغلو أول فرصة للخلاص وتخلصوا؟ ألأنني كنت مراهقة صعبة تحلم أحلاماً كبيرة، وتقرأ كتباً كبيرة..؟ أو ربما لصغر سني واهتزازي العاطفي، وعدم ثقتي بنفسي وبتصرفاتي المدانة دوماً، كبوت ووقعت وغرقت؟"<sup>(١٠٤)</sup>.

لقد انتهت مرحلة استلابها كفتاة، لتبدأ مرحلة جديدة من الاستلاب وهي استلابها كزوجة. زوجة قبلت مرغمة بالنصيب وما استطاعت أن تقول لا، لأنه ما كان في وسعها أن تقول نعم. فغرقت في مستنقع الزوج الآسن.. وعانت في دنياه شتى صنوف القهر والذل والحرمان والوحدة القاتلة.

وبسبب فقدانها لمشاعر الحب والدفء والألفة، في أسرتها، ثم في بيت زوجها، ونتيجة لظروف القهر والاستلاب التي تعانيتها من جراء تبعيتها المطلقة للزوج، ولي الأمر، لجأت إلى التعويض عن طريق تعلقها بقطتها عنبر "قطة عفاف جميلة لأبعد حد، بيضاء منفوشة.. وكانت تغبطه تعبي حيلته فيغضب، يضربها.. فتطير، وترتطم بجدار الحمام، أسمع صوتاً مكبوتاً لفرو وعظم. أبكي سرّاً ثم أغافلها وأحضنها، وأهمس ضربك؟ فتقول: ناو، الحيوان ضربك؟ فتقول: ناو، وأنا يضربني، وأغرس وجهي في فروتها وأبكي أكثر"<sup>(١٠٥)</sup>.

إن لجوء عفاف إلى الاستكانة والرضى القسري بحياتها الزوجية، ومن ثم التمرد العشوائي عليها، جعلها تدفع الثمن غالباً، فكانت هي الخاسرة الوحيدة في معركة خططت، خطأ، لخوضها، وحلمت، عبثاً، بالخروج منها منتصرة، بعد أن أجهضت حملها وأصبحت عقيماً. فأهرقت سني عمرها بلا عاطفة وسارت في موكب الزاحين بدون تمرد.. وتواطأت مع طريقة في العيش تحتقرها: "من أنا؟ امرأة اعتاد وجودها رغم العقم، تنظف بيته، تطبخ له، تستسلم لنزعاته البهيمية والسادية، ولا تلوم أو تعاتب بعد أن اعتادت ويئست. لكن حبي للأطفال يتزايد مع تزايد وحشتي ويأسي وتساقت

(١٠٢) -مذكرات امرأة غير واقعية ٣٩-٤٠.

(١٠٣) -المصدر السابق ٣٩.

(١٠٤) -المصدر السابق ١٨.

(١٠٥) -المصدر السابق ١١-١٢.

السنين" (١٠٦).

لقد عزز العقم إحساسها بالفراغ والقلق والضياع والاعتراب، ذلك أن الأمومة بالإضافة إلى كونها حاجة عضوية جسدية، وحاجة نفسية واجتماعية، قد أصبحت لدى المرأة المقموعة المستلبة تعويضاً عما تعانيه من حرمان وخيبة أمل في علاقتها الزوجية، فالأمومة هي الملجأ الذي يحميها من حياة الظلم والقهر والتعاسة، وتبدد بعضاً من أحزانها، وتشعرها "بأنها إنسان، وتلقي على منكبيها ثوب الكرامة الذي طالما ضن به عليها مجتمعنا الاضطهادي" (١٠٧). ومع ذلك، ضحت الزوجة بأمومتها في سبيل حريتها، كانت تحلم بالطلاق، ولكنه لم يتحقق، لأن مصير الزوجة، ربة المنزل، في مجتمعنا هو بيد الزوج، فهو يمتلك الحق لنفسه بالاحتفاظ بزوجه، على الرغم من معرفته لحقيقة مشاعرنا نحوه. فحين يتساءل الزوج "ماذا لم أطلقها يا رب؟" تجيب في سرها، وتكشف سر احتفاظه بها: "لأن طبيخي أركى طبيخ، واسمي أحلى اسم، وبيتي مثل اسمي، كالفل" (١٠٨).

وبالإضافة إلى ذلك، تطرح الروائية الفلسطينية المشكلات التي يخلفها الطلاق، فهو برأيها ليس الوثيقة المثلى التي تنال بها المرأة المضطهدة حريتها، وتستعيد كامل حقوقها، وكرامتها المهذورة، وتثبت وجودها وهويتها، فالطلاق يجر الكثير من الويلات على المرأة، ولا سيما إذا كانت لا تحسن عملاً، ولا تتقن مهنة، وغير مستقلة اقتصادياً كعفاف، مما يكرس تبعيتها للرجل، ولذا يكون طلاقها أشد وطأة عليها، إذ لا تجد بيتاً يؤويها، ولا دخل يحميها ويقيها الحاجة. وتبقى عرضة لألسن الناس.. إضافة إلى مشكلة الأولاد- إذا وجدوا- وتشتتهم ما بين الأبوين المنفصلين "ما عدت أفكر بالطلاق كحل لمشكلتي، أصبح يتهددني بخوف، لا يجاريه إلا خوفي من الزواج نفسه. فماذا أفعل بدون زواج؟ سنوات من عمري مرت ولا مهنة لي إلا هذه المهنة. حتى هذه المهنة لم أجدها حسب مواصفات الزواج الناجح.. فماذا أفعل لو تطلقت؟ أين أعيش وكيف؟" (١٠٩).

وبما أن "عفاف" غير منتجة، لا تجيد عملاً ولا تحسن مهنة، كان من الطبيعي أن تنتهي ثورتها الداخلية من حيث بدأت، إلى الضياع والوحشة والفراغ القاتل. فعند سفرها بمفردها إلى عمان تلقي مصادفةً بحبيب الطفولة، المتزوج التعميس، فتصل ما انقطع بينهما من مودة وإعجاب، وتحس بكل الحب، وكل

(١٠٦) -مذكرات امرأة غير واقعية ٤٥.

(١٠٧) -طرايشي، جورج: الأدب من الداخل، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت ط١/١٩٧٨ ص٩٥.

(١٠٨) -مذكرات امرأة غير واقعية ٨٠.

(١٠٩) -المصدر السابق ٧٠.

العطف وحنان الروح فتقول: "وامتلأت بكل ما بحثت عنه طوال العمر، وجدت دفناً غمر العالم كله بفيض من زرقة تفتقرها حتى السماء"<sup>(١١٠)</sup> وتحاول أن تبدأ معه من جديد، وهي واهمة حالمة، لتعوض ما خسرت طوال عمرها.. فتمضي معه بعض الأوقات السعيدة المسروقة من زوجها، وهي تنتقل بصحبته من ناد إلى آخر، يتبادلان القبل اختلاصاً، ويستمتعان بسماع الموسيقى، وتتشابك أيديهما خوفاً من الإفلات والغربة ثانية<sup>(١١١)</sup>. وتمني النفس بالتححرر من زوجها لتكون له، وتبوح له بمخططها البسيط، فيتهرب منها، إنه من ذلك النوع البرجوازي- كما تصفه صديقتها نوال- الذي "يعبث بالمرأة ولا يحترمها"<sup>(١١٢)</sup>.

ولكن "عفاف" التائهة، الراغبة في تحطيم القيود، لا تأبه لنصيحة صديقتها، ولم تستطع فهم الواقع آنذاك، لأنها كانت غارقة بالحب والمغامرة العابرة، وهي تشعر باللذة والارتياح حين تكون لأول مرة الفاعل لا المنفعل. وتعتبر عن هذا الشعور بقولها: "كنت أجد لذة كبيرة، وأنا أتصور حال الزوج المهجور لأول مرة. لأول مرة تنقلب الصورة، وأكون الهاجر لا المهجور. تلك الصورة السحرية التي ما فتئت تثير في أحاسيس البطولة والشماتة. وكان الانتقام لذيداً، والتشفي بلسماً أغترفه فتنبرد جروحي. وما كنت على استعداد لأن أسمع تفسيراً آخر للصورة. فخرجت لا ألوي على شيء، إلا المزيد من التكسير"<sup>(١١٣)</sup>.

لقد كان الانتقام بديلاً عن التغيير، انتقام من الماضي، ومن كل ما لحق بها من استلاب، وكبت وحرمان وقهر وتسخيف، ولكنه لم يكن ذا جدوى، بل ارتد عليها بمزيد من الخطأ.. والضياح إنه انتقام المرأة من سلطة الرجل، وعسفه وتناقضاته، ومن ظلم المجتمع التقليدي المتخلف، وبعض نظمه وتقاليده البالية. ولذا نرى "عفاف" تتماذى في التعبير عن سخطها، وهي تكثر من شرب الأنخاب، وتقول بسخرية مرة: "وشربت كثيراً.. وتماديت في شرب الأنخاب، نخب الوالد المفتش، واحد، نخب الإخوة الأشاوس، اثنان.. نخب بلد علمتني كيف أرضى بالقهر وأسميه سترأ وواقعية.. نخب ونخب.. تساءلت وأنا أنظر في عينيه الخائفتين الحزینتین: وأنت يا حبيب العمر ألن تشرب الأنخاب معي؟.. كان يستوعب كلماتي ويمضغها بصمت، وربما كان قد بدأ يراجع موقفه مني"<sup>(١١٤)</sup>.

(١١٠) -مذكرات امرأة غير واقعية ١٠٤.

(١١١) -ينظر المصدر السابق ١٠٥.

(١١٢) -ينظر المصدر السابق ١٠٦.

(١١٣) -ينظر المصدر السابق ١٠٨.

(١١٤) -مذكرات امرأة غير واقعية ١٠٩.

وتعود إلى بيت الطفولة، وقد هزمتها الدنيا أكثر من ذي قبل، زواج فاشل، حب فاشل رغم الإحساس، وصدق القلب، ولا شيء كبير: لا أهل تستند إليهم، لا مهنة، لا تخطيط، ولا أحلام.. تموت في اللحظة، وتعيش لها، حتى باتت عاجزة كنبات البابونج بين العشب.<sup>(١١٥)</sup>

\*\*\*

وتأخذ العلاقة الزوجية في روايتي جبرا إبراهيم جبرا "السفينة" و"البحث عن وليد مسعود" منحى آخر، حيث الأزواج والزوجات غير فلسطينيين<sup>(١١٦)</sup>. ينتمون إلى الطبقة البرجوازية السطحية، في المجتمع البغدادي، وهم، في مجملهم، مثقفون ثقافة عالية، مقبلون، بل متهاكون "على مباحج الحياة بشغف، وحاجة الجسد هي ذروة اللذة الحسية"<sup>(١١٧)</sup> لديهم. يعانون بعض الأزمات النفسية والاجتماعية والفكرية، يتسمون بعدم القدرة، بل بالعجز عن التغيير، ويسقطون أخيراً في أتون الميوعة والتناقض والفوضى والتمزق والتوترات النفسية<sup>(١١٨)</sup>.

ففي روايته المتميزة "السفينة" (١٩٧٠) التي تجري أحداثها على متن السفينة اليونانية "هيركوليس" أثناء إحدى الرحلات في البحر الأبيض المتوسط، يعالج جبرا مجموعة متشابكة من العلاقات بين شخصيات الرواية، إذ "يشكل الماضي عبئاً ثقيلاً على كل الشخصيات، رغم لحظات السعادة والهناء التي عاشها بعض منها، فالمحصلة لا يمكن احتمالها، لأن ثقلها النفسي لا يطاق"<sup>(١١٩)</sup>.

لقد اختار جبرا "السفينة" لكونها "مكاناً ممتازاً للقاء هذه المجموعة الكبيرة من الناس"<sup>(١٢٠)</sup> ولكونها وهي تشق طريقها في البحر "تسمح.. للعلاقات الإنسانية بأن تأخذ مداها الكامل، تتفاعل، تتحاور، تتصادم في محاولة لاكتشاف مبرر الوجود. ولمراجعة الذات بشكل جماعي ومتحرر من الضغط الاجتماعي، فالعلاقة العابرة التي تشد الشخصيات ببعضها تسمح لها بالتعبير بجديّة كبيرة"<sup>(١٢١)</sup>.

أما البحر، فهو، كما أشار جبرا في بداية روايته، "جسر الخلاص". وربما

(١١٥) -ينظر المصدر السابق ١٢١-١٢٢.

(١١٦) -ستكون لنا وقفة عند سبب غياب المرأة الفلسطينية في روايتي جبرا، في الباب الثاني من البحث.

(١١٧) -وادي، فاروق: ثلاث علامات في الرواية الفلسطينية ١٥٧.

(١١٨) -ينظر المرجع السابق ١٦٥-١٦٩-١٧٠.

(١١٩) -أبو مطر، د. أحمد: الرواية في الأدب الفلسطيني ٢٢٠.

(١٢٠) -خوري، الياس: تجربة البحث عن أفق. م. ت. ف بيروت ١٩٧٤ ص ٦٨.

(١٢١) -المرجع السابق ٦٨-٦٩.

كان "عبارة عن ستارة خلفية هادئة لهذه النشاطات التي تقوم بها الشخصيات" (١٢٢). وما يهنا من هذه النشاطات والعلاقات تلك العلاقات القائمة بين الأزواج، وتحديداً، فيما بين الدكتور فالح حسيب ولى عبد الغني. (\*) .

ينتمي الدكتور فالح إلى الطبقة البرجوازية التي تنتمي إليها "لى" وهو طبيب جراح، تربطه بأهل "لى" أوامر قري، ويحظى لديهم بمكانة بارزة، ولذا يلقى طلبه يدها قبولاً وترحيباً من الأهل، وترغم "لى" على الزواج منه بعد تخرجها وعودتها من اكسفورد (١٢٣). أما هي فكانت قبل زواجها على علاقة عاطفية جسدية مع صديقها وحبيبها "عصام السلطان". وقد استمرت تلك العلاقة طوال فترة دراستها في إنكلترا، وامتدت إلى ما بعد زواجها. ويعود السبب في عدم زواجهما إلى وجود ثأر بين العائلتين. وبحكم العادات العشائرية السائدة في بعض أوساط المجتمع العراقي آنذاك (١٩٨٥)، حكم على العلاقة بين لى وعصام بالموت. وبدافع الإحباط واليأس "أقدمت لى.. على زواج يتوافق مع المصالح الاجتماعية" (١٢٤) لكلتا العائلتين، إذ تزوجت الدكتور فالح، ولكنه كان زواجاً تعيساً لما بين الزوجين من تناقض صارخ في المشاعر والاهتمامات والأفكار. ولأن كلاً منهما كان يحمل في داخله بذور الانكسار والخيانة والسقوط، فقد كان المصير فاجعاً.

فمنذ الصفحات الأولى في الرواية، تتكشف أمامنا صور شتى لعلاقات اجتماعية مأزومة ومشبوهة، ونفوس مشبعة بالانكسار والألم، تشي بهشاشة هذه الطبقة التي تنتمي إليها معظم شخصيات جبرا، وتداعياها من الداخل. كل منها "عنده مشكلة، كل هارب، كل يعيش في الوهم وفي الذكريات، كل يبحث عن أسباب مأساته: السلطة، التقاليد، الأرض، السياسة، الحرية، الحب، فلسطين، العدالة.. أما الحل فكان عن طريق.. الكلام، الذي حوّل السفينة إلى مسرح للعبث. ومن خلال هذا العبث، انبعثت شهوة الحياة وشهوة الموت: الجنس والحب والانتحار. لا حدث ينمو، ولا حديث ينمو، الوهم وحده ينمو ويكبر. فجر هذا الوهم حدثاً واحداً: انتحار فالح. إلا أن هذا التفجر كان أنياً، وعابراً. أما الرحلة

(١٢٢) - آلن، روجر: الرواية العربية، مقدمة تاريخية ونقدية، ت حصة منيف. المؤسسة العربية للدراسات

والنشر، بيروت ط ١٩٨٦ / ص ١٤٨.

(\*) - سيكون لنا وقفة مع لى في الباب الثاني من البحث.

(١٢٣) - ينظر: جبرا، إبراهيم جبرا: السفينة. دار الآداب، بيروت ط ١٩٨٣/٣ ص ١٠٣.

(١٢٤) - آلن، روجر: الرواية العربية ١٤٣.

فقد استمرت تبحث عن الخلاص من خلال الوهم<sup>(١٢٥)</sup>. تبحث "عن مخرج بطريق عبثي نابع من انهزامية في مواجهة الواقع"<sup>(١٢٦)</sup> وأكثر ما تجلت هذه الانهزامية في شخصية الدكتور فالح زوج لمى، فهو "سوداوي، كثير العزلة.. ناغم على العالم وعلى نفسه، ممزق.. مغترب.. يرى العالم مملوءاً بالدود"<sup>(١٢٧)</sup> يقول: "إنني ألعن هذا العصر.. كل إنسان منا، كل واحد منكم مسيح ويهوذا معاً... دودة تلتهم دودة. إننا في مملكة الدودة"<sup>(١٢٨)</sup>. وقد أدرك أحد أصدقائه سر نغمته إذ يقول: "من الواضح أن له من الذكاء ما يجعل لنغمته أوجهاً عديدة، ومعاني كثيرة، وإن تكن زوجته.. السبب الأول في هذه النغمة. فالح.. متمتت.. ولكنه أصر على الزواج من امرأة توحى بالحرية والانفلات واللذة. ولها.. من الذكاء ما يجعل لجمالها ألف وجه ومعنى إزاء نغمته على الحياة"<sup>(١٢٩)</sup>.

ولعل أحد أسباب هذه النغمة يكمن في عدم الثقة بزوجه، فعندما تتعدم الثقة بين الزوجين، وتضرم الغيرة نيرانها في صدر الزوج، يصبح كل شيء بينهما مضطرباً ومعرضاً للانهايار. ولهذا فهو يلازمها ويراقبها، ضارباً حولها دائرة سحرية تمنع الآخرين من اقتحامها.

وإذا كان لجمال "لمى" وفتنتها ذلك الأثر البالغ على الرجال من حولها، فتجذبهم إليها وتثير في نفوس بعضهم مشاعر متباينة، فيها الإعجاب والرغبة والشهوة والغيرة والامتعاض والحسد والكراهية.. فإن ذلك كان مصدر قلق واضطراب وشقاء بالنسبة لزوجها.

ولقد تنبأ "فرنندو" الإسباني بالفاجعة، قبل وقوعها، وهو يتحدث مع عصام السلطان عن الحب والجمال، وأثر ذلك في الإنسان العربي، وكان يقصد بحديثه الدكتور فالح: يقول: "العرب والإسبان من دم واحد.. يقتلون من أجل المرأة، ويقتلون المرأة عشقاً وغيرةً وشرفاً، والعرب والإسبان وحدهم.. يعرفون عبادة الجمال في المرأة.. أما السنيوريتا "لمى" فلن يكون لجمالها من نهاية إلا المأساة"<sup>(١٣٠)</sup>.

ويصدق حدس "فرنندو" وتبدأ المأساة تتسج خيوطها حول الزوج الخادع والمخدوع في آن معاً، وذلك حين تندفع "لمى" للرقص على أنغام أم كلثوم، فتنثنى

(١٢٥) - فرنجية، بسام: الاغتراب في الرواية الفلسطينية، رسالة دكتوراه، مخطوط، جامعة جورج تاون ص ٥١.

(١٢٦) - المرجع السابق ٥١.

(١٢٧) - المرجع السابق ٥٤.

(١٢٨) - السفينة ١١٢.

(١٢٩) - المصدر السابق ١١٦.

(١٣٠) - السفينة ٢٧.

وتتلوى، بينما يحدق الجميع في جسدها البديع المتفجر بالأوثة والرغبة، داخل الفستان الضيق "فلا يعرف المرء، في أي عضو يركز النظر.. كانت ترفع يدها، هائلة إلى شعرها بحركة الإغراء تلك التي تحترفها الراقصات.. وكان الطبيب يتتبع تماوجها، واستدارتها بعين الفخور أنا، وبعين المخرج أنا.."(١٣١).

لقد كانت تلك الرقصة هي الحكم عليه بالموت، إذ أحس بطعنة دامية، أصابته في كبريائه وكرامته، وأجهزت على كل ما تبقى لديه من مكابرة، وتجمل بالصبر والائتزان، مما زاد في انشطاره النفسي وكآبته، وسوداويته وإحساسه بتفاهة العالم من حوله. وضاعف مأساته، شكه بزوجه، ومن ثم يقينه بخيانتها له مع عصام السلطان، بعد أن رأهما معاً خارجين بنزهة.. في أحد شوارع نابولي.. فبات يعاني شعوراً حاداً بالكآبة واليأس، وأصبح يكثر من الشراب ولا يعود لقمرة إلا مخموراً، وقد قارب السكر، حينئذ يستطيع الاختلاء بها.(١٣٢)

و"ترسم (السفينة) صورة مقيبة لعلاقات الحب والزواج.. الحب يتحول إلى قيمة متدنية، يستهدف الخلاص عن طريق الطرف الآخر. ويبنى على حب الجسد، وحب الخيانة. حب فالج لزوجته لا يقصد منه الحب نفسه، بقدر ما يقصد منه أن يجد فالج في لى جسراً لخلاصه. وكذلك حب إميليا لفالج هو بحث عن الخلاص من أزمة اليأس"(١٣٣).

وإذ تسلط الرواية الضوء على جانب هام من تلك العلاقة للأخلاقية التي تنشأ في بعض أوساط الطبقة البرجوازية السطحية، فإنها تعري زيف مثل تلك العلاقات التي تقوم على المجاملة والخداع والخيانة وتتطوي على الفجيرة. فنكشف الرواية هذا التقابل والتبادل بين خيانة كل طرف للآخر. ففي الوقت الذي تخون فيه لى زوجها مع عصام، كان فالج يخونها مع عشيقته إميليا، فيمارسان الحب في قمرة الأخيرة. وكذلك حين كانت "لى" تصطنع المرض لتتخلف عن مشاركة زوجها في الرحلة إلى "كابري" كان فالج يكرر بزوجه أيضاً، فيحول رحلته من كابري إلى نابولي لينفرد بعشيقته الحساء "إميليا"، ومن أحد مطاعم نابولي يشاهد زوجه عبر النافذة وهي تتأبط ذراع عشيقها عصام، وهما يهرولان نحو المدينة.

وهكذا يتلقى الزوج صدمة عنيفة تفقده توازنه، وتزيد من تمزقه ومعاناته، وتسرع في تنفيذ قرار الانتحار الذي سبق أن اتخذه، تعبيراً عن سخطه واستنكاره

(١٣١) - السفينة ٩٥.

(١٣٢) - ينظر السفينة ٢٠٦-٢٠٧.

(١٣٣) - فرنجية، بسام: الاغتراب في الرواية الفلسطينية ٦٤-٦٥.

وغيرته، وخلصاً من حالة القلق والانشطار التي كان يعانيها بشكل حاد. وهذا ما كشفت عنه مذكراته واعترافه الذي تركه لزوجته: "إنني أحببتك حباً هو أقرب إلى العجز، ولكنه حب شغلي ومتعني، وفي بعض الأحيان عذبي" (١٣٤).. "كنت أطلب فيك ملجأ لتوزعي وانشطاري، ولكنني انخدلت فيك. كنت جداراً عجزت عن اختراقه" (١٣٥). وفي الوقت الذي كان يضع حداً لحياته المعذبة. كانت "لمى" في غرفة "عصام" تمارس الحب بشغف وعنف، لقد "استطاع جبرا من خلال السفينة أن يدين الواقع العاجز المتمثل في طبقة مثقفية البرجوازيين، وجعل من ثقافة هذه النخبة ثقافة عاجزة، لا تزال تبخر في وهما وزيفها" (١٣٦) وجعل من السفينة "صرخة من أجل الوعي، وعي العجز، والخروج من هذا العجز.. صرخة تدين الانهزامية والاستسلام للذكريات، ودعوة لتحمل المسؤولية من أجل المواجهة والتجاوز" (١٣٧)

ويأخذ التناقض بين الأزواج شكلاً أكثر بروزاً واتساعاً في "البحث عن وليد مسعود" إذ تبدو العلاقة بين الزوجين (هشام الصفار ومريم الصفار) (١٣٨) متوترة، مأزومة، تلفها الخيانة بسبب الخلل الكامن في شخصيتهما، وفي علاقة بعضهما ببعض. فمريم "مصابة بنوع من الأرق الدائم والصداع الشديد، تعيش أزمة اغتراب، بسبب التناقض الناجم بين الظاهر والباطن، فالظاهر هي زوجة هشام، الرجل ذي المركز المتنفذ. تملك بيوتاً وسيارات... تقوم برحلات وإجازات وتسافر كثيراً. والداخل: غير سعيدة مع زوجها، فزوجها رجل صنعته الوظيفة، تافه، غير مقتنعة به، ولا تتسجم معه جنسياً، حياتها مبنية على الكبت.. تشعر بوحدة مطلقة. وباتت غريقة الوهم" (١٣٩).

أما زوجها هشام، فهو كما يصفه صديقه طارق رؤوف: "شديد الانضباط.. شديد التقاهة. لا أحسبه كان يجد هدفاً في حياته أعظم وأبهى من الكرسي الجلدي الأسود، وراء منضدة خشبية.. ومريم كقطعة من جمر، تتأجج في البيت عاطفة وخيالاً، وتحرقاً للحياة. يقابلها رجل لا يتمتع إلا بتهرؤ مؤخرته على مقعد سلطة موهومة، إزاء كتبة وملاحظين ومدراء" (١٤٠).

(١٣٤) - السفينة ٢١٥

(١٣٥) - المصدر السابق ٢١٦

(١٣٦) - فرنجية، بسام: الاغتراب في الرواية الفلسطينية ٦٥.

(١٣٧) - المرجع السابق ٦٥.

(١٣٨) - سيكون لنا وقفة مع شخصية مريم الصفار في الباب الثاني من البحث.

(١٣٩) - فرنجية، بسام: الاغتراب في الرواية الفلسطينية ٧٢.

(١٤٠) - البحث عن وليد مسعود ١٢٨.

وإزاء هذا التناقض، أخذت تتسع الفجوة بين الزوجين، ويزداد انجراف كل منهما وراء رغباته ونزواته، جاعلين من الفجور أسلوباً لهما في الحياة. لم تكن "مريم" لتشعر بالسعادة والاستقرار يوماً. فقد كانت تمقت زوجها، ولا تحفل بما يريد من الحياة. كانت ردود فعله على تصرفاتها مع الأصدقاء تتسم بالعصبية، وتتحول فجأة إلى العنف والتهديد بقتلها أو الانتحار.. وأكثر من مرة استعمل قوته العضلية معها، وأخذها اغتصاباً.. حتى باتت تكره اقترابه الجنسي منها. كانت غيرته تدفعه إلى بلاهات في القول والفعل، وصارت هي، فيما بعد، تشجعها عامدة<sup>(١٤١)</sup>، وكأنها تريد بذلك، أن تسوغ، أمام الأصدقاء، تصرفاتها المنفلتة، فتظهر أمامهم بمظهر المرأة الضحية وهو الجاني، لكي تبدو تصرفاتها مبررة، فلا تشعر بالذنب أو تأنيب الضمير، ومن الطبيعي إذاً، أن تنتهي العلاقة بين الزوجين إلى الانفصال، ولكن هذا الانفصال لم يكن ليحقق للزوجة حريتها الحقبة كما توهمت. لقد جعلها تسقط مرة أخرى في دوامة الشقيقة والألم، حيث سقطت أخيراً حصونها وانهارت أسوارها<sup>(١٤٢)</sup>.

\*\*\*

هكذا تضعنا روايتنا جبراً أمام علاقات زوجية مأزومة، متناحرة، متناقضة. لا مجال للتوافق بين طرفيها (الزوج والزوجة)، ويعود السبب في ذلك إلى طبيعة التكوين النفسي والمزاجي والفكري لكل طرف، ومن ثم إلى طبيعة العلاقات الاجتماعية المنسوخة في أوساط المجتمع البرجوازي الأرستقراطي... الذي يعيش أفراداً على هامش الحياة العامة، يعانون تناقضات شتى.

فالسقوط المدمر الذي مثله "فالح" (كان ذروة المأساة.. وانتحاره لم يكن انتحاراً يائساً. إنه جنون. فعدم القدرة على التواصل مع الآخرين، والضغط الاجتماعي الذي يقذفه خارجاً، يدفع به إلى تدمير ذاته، بعد أن عجز عن تدمير العالم"<sup>(١٤٣)</sup> أما زوجه لمي، فقد مثلت "اليأس من الواقع، والرضوخ له في آخر المطاف"<sup>(١٤٤)</sup>. على حين مثل إخفاق زواج هشام ومريم الصفار، وانهايار علاقتهما وضياع مريم، ضياع طبقة أعلنت عنه تلك الشخصيات في روايتي جبراً<sup>(١٤٥)</sup>. وجاء انتحار الدكتور فالح لينبئ عن انهايارها فيما بعد.

(١٤١) - ينظر البحث عن وليد مسعود ١٨٠-١٨١.

(١٤٢) - ينظر المصدر السابق ١٨١.

(١٤٣) - خوري، إلياس: تجربة البحث عن أفق ٧٠.

(١٤٤) - المرجع السابق ٧١.

(١٤٥) - ينظر: خوري، إلياس: تجربة البحث عن أفق ٧٣.

## ثانياً- العلاقة بين المرأة والرجل خارج الأسرة:

لم ينحصر اهتمام الروائيين الفلسطينيين في رصد العلاقة بين المرأة والرجل داخل الأسرة وحسب، بل انسحب اهتمامهم بتصوير حدود هذه العلاقة إلى خارج الأسرة أيضاً، فرصدوا أنواعها، وتتبعوا أشكالها ومستوياتها، والمواقف التي تتم عنها، والقيم التي تطرحها، معبرين، من خلال ذلك كله، عن رؤاهم الفكرية والاجتماعية والسياسية والفنية.

ويستطيع الباحث في هذا الجانب من العلاقات، والصلات، أن يميز نوعين من العلاقات فثمة علاقات عاطفية صادقة، ويتجلى أكثرها في صفوف المناضلين والمتقنين الثوريين، ممن ينتمون إلى الطبقة الكادحة، وثمة علاقات زائفة، تكاد تكون محصورة في بعض الأوساط البرجوازية المثقفة، وفي صفوف بعض الثوريين المزيفين.

### ١- علاقات عاطفية - صادقة:

لكي يحقق الروائي الفلسطيني التوازن بين الحياة العادية للإنسان الفلسطيني، بما فيها من آمال والام وتطلعات من جهة، والمآسي التي يخلفها الصراع مع عدو أذمن ارتكاب المجازر منذ عشرات السنين من جهة أخرى<sup>(١٤٦)</sup>، لجأ إلى الإغلاء من شأن الحب، والعواطف النبيلة، بالقدر الذي يحمي شعبه من السقوط في حمأة اليأس والقنوط والعطالة، ويشد عزمته، ويدفعه إلى الصمود والتحدي والمواجهة، والتشبث بالأرض تحت أعتى الظروف، وأشدّها قهراً وجبروتاً.

ولعل أبرز الروائيين الذين تناولوا هذه العلاقة، هو رشاد أبو شاور في رواياته "العشاق" و"البكاء على صدر الحبيب" و"الرب لم يسترح في اليوم السابع".

ففي "العشاق" تظهر ندى الشابة الفلسطينية المتعلمة، التي تربطها علاقة حب بالشاب الثوري "محمود" فتظهر جرأة واضحة في التعبير عن مشاعر الحب الذي تكنه لمحمود، ولا تكترت كثيراً بمن سيراه برفقته، فحين يسألها: "ألا تخافين أن يرانا الناس معاً؟"<sup>(١٤٧)</sup> تجيب بتحدٍ يجلله عشق وحنين وفرح ودهشة: "ليرنا الناس معاً". وتعلن عن رغبتها في تقبيله في الشارع، وأمام الناس. أما هو فيظهر بعض التحفظ إزاء آراء حبيبته، معبراً عن وعي سليم لمعنى الحب، وواقع

(١٤٦) - ينظر: الراعي، علي: الرواية في الوطن العربي ٢٦٠.

(١٤٧) - العشاق ٦٤.

المجتمع. إذ لا يرى فيه محض نزوة شخصية، أو رغبة فردية، بل يراه خلاصاً للمجتمع كله، وهو خلاص لا يتحقق بقرار، إنما يتحقق مع الزمن، وعبر مهمة شاقة وطويلة، تتطلب التعليم والبناء الصحيح للإنسان. ولذلك لا ينساق وراء مشاعر "ندى" واندفاعها، إذ يدرك أن ذلك محض نزوة واندفاع، وكسر لقيمة اجتماعية، لا ضرورة لكسرها، وإن كان ثمة ضرورة حتمية لإصلاحها، من خلال الحب الذي يؤمن به إيماناً عميقاً. فهو يرى أن هذه العاطفة الإنسانية السامية، هي التي تجعل للحياة طعماً، وتسمو بالنفس، وتهذبها، بل يذهب إلى أبعد من ذلك حين يجعلها شرطاً أساسياً على معلم الأجيال أن يتحلى بها، ليتمكن من ممارسة دوره التعليمي البناء<sup>(١٤٨)</sup>.

\*

وفي "البكاء على صدر الحبيب" نقع على عاشقين متقفين ثوريين، يمثلان امتداداً متطوراً لشخصيتي "ندى ومحمود" هما "فجر وزيد" و"فجر" شابة أردنية من الكرك، انضمت إلى أحد التنظيمات الفلسطينية المسلحة في عمان، وتناقلت بين عواصم عربية: بيروت وعمان ودمشق. أحببت -فيما مضى- صديقاً لها في المقاومة، ومنحته أغلى ما تملك بعد أن وعداها بالزواج، فصدقته، وظنت أنه يستحقها، ولكنها، وبعد فوات الأوان، تكتشف خداعه، وتترك أنها تورطت مع رجل مزيف قدر، يعيش هو وأقرانه على دم الآخرين. "يمتص الثوريين الحقيقيين، ويحولهم بدورهم إلى اسفنجات تمتص غضب غيرها"<sup>(١٤٩)</sup>. صعقت "فجر" حين أدركت الحقيقة، ولكنها أظهرت قدرة كبيرة في ضبط النفس، واستعداداً لتحمل مسؤوليتها تجاه تجربتها المرة، دون أن تفقد ثقافتها بنفسها، وبمن حولها، رافضة شفقة "زيد" رفيقها في السلاح والمقاومة، الذي أحبها من جانب واحد، منذ فترة طويلة، وعرض عليها الزواج، فاعتذرت، لارتباطها العاطفي بذاك الرجل (دكتور الاقتصاد). وها هي تقول له بصوت راعش واهن: "يهيمن عليه الأسى والانكسار: أنا يا زيد.. لست عذراء"<sup>(١٥٠)</sup> و"يا مكانك أن تتركني. إنني لا أريد شفقة. أنا لا أستحقك يا زيد"<sup>(١٥١)</sup> فيجيبها بصدق المحب الثوري الأصيل، معبراً عن استعداده للصفح والمغفرة، وتجاوز تلك النظرة التي تعد المرأة جسداً فاضحاً، على الرغم مما يعترض قلبه من حزن وألم وغضب. يقول: "أنا متألم الآن، لا أريد أن أكذب عليك. أنا مقهور الآن. ليس لأنك فقدت عذريتك مع ذلك القدر. إنني أشعر وكأنه اغتصب أمي

(١٤٨) - ينظر: العشاق ص ٦٢.

(١٤٩) - البكاء على صدر الحبيب ص ٤٠.

(١٥٠) - المصدر السابق ص ٥٧.

(١٥١) - المصدر السابق ص ٥٨.

أمامي، لقد أهانونا كثيراً، ولكن لكل شيء نهاية" (١٥٢).

هكذا يعلن المثقف الثوري الحقيقي عن انسجامه مع نفسه وفكره وواقعه، رافضاً أي نوع من أنواع الازدواجية. فيغلب القيم الجديدة التي تسهم في تقدم المجتمع وتحرره، على ما عداها، ويقف إلى جانب المرأة، وإن زلت قدمها، ويساعدها على تجاوز أخطائها، معترفاً بإنسانيتها، ومساواتها له، مستوعباً في ذلك ظرفها الاجتماعي والنفسي، بصورة تدعو للإعجاب والتقدير.

وإذا كان "زياد" قد تجاوز كيوه حبيبته "فجر" تلك الكيوه التي لم تكن بدافع الانحلال أو التعهر، بل كانت بسبب خدعة أجد نسجها، من جانب أحد الثوريين المزيفين، فإن صديقه "غالي" في الرواية نفسها، يتجاوز سقطات "هنا" رفيقة "فجر" وهي كاتبة، وصحفية، تعاني أزمة نفسية، فيصفح عن ماضيها الملتخ بعلاقات جنسية عابرة، بعد أن خفق قلبه بحبها، وها هي تعبر لصديقتها "فجر" عن ندمها وألمها، ومقدار ما تعانيه من تعذيب للنفس، عما ارتكبتته من آثام بحق نفسها وروحها وجسدها. تقول: "أنا انتهيت يا فجر.. إنني.. أشبه ما أكون بمومس حتى.. خفت أن أكون مريضة.. أنا لا أصلح أن أكون زوجة لأياً رجل مهما كانت قيمته. كنت أريد دائماً أن أؤكد إنني امرأة، وإنني حرة.. قرفت.. يجب أن أتطهر لأستعيد احترامي لنفسي" (١٥٣).

لقد حاولت الانتحار، أمام صديقتها، لتتخلص من عذاب النفس، وتبكيه الضمير، بعد أن بلغت من الحزن واليأس شأواً بعيداً، إلا أن لقاءها "غالي" المثقف الثوري، المرح الحزين الذي جاب العالم، هارباً من أخطاء قيادة تنظيمية، ثم عاد، لأنه لم يستطع الانسلاخ عن واجبه الوطني، كان له دور بارز في تغيير مجرى حياتها. فها هي تصارح "فجر" بقولها: "أنا مفتونة بهذا الولد. أعشقه، كأني صوفية، وهو المطلق. أه من الوجد، في حضرة من أهوى يمتلئ العالم بالورد والعصافير، يدور بي زورق الحب السكران في بحر من عطر الورد، وأريج الياسمين.. إذا لم أكن له، ويكون لي، فالموت الجميل. سيأخذ روحي" (١٥٤).

هكذا تصالحت المثقفة الضائعة، مع نفسها ومحيطها، واستعادت احترامها لذاتها، واستردت كرامتها المهذورة على عتبة الانطلاق والتحلل، إذ كان لموقف غالي الواضح والجريء، الأثر البارز في مساعدتها على تغيير مجرى حياتها،

(١٥٢) - المصدر السابق ص ٥٨.

(١٥٣) - البكاء على صدر الحبيب ص ٧٩-٨٠.

(١٥٤) - المصدر السابق ص ٨٦-٨٧.

والتطهر والخلاص مما تعانیه.

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو: إذا كان "غالي" وهو من كانت له سقطاته، أيضاً فيما مضى، قد تجاوز سقطات "هنا" وتقبلها لأنها مثله. فهل يصفح الكاتب أو المجتمع عن مثل تلك السقطات؟ إن من يقرأ الصفحات الأخيرة من الرواية، يجد الإجابة عن هذا السؤال، إذ تنتهي "هنا" بمصرعها في حوادث المدينة الرياضية في بيروت عام ١٩٧٣، وهي تحاول أن تلحق بحبيبتها "غالي"، لتشارك إلى جانبه في القتال، فتموت موتاً مجانياً عبثاً. هكذا تكون النهاية المنطقية لحياة فتاة عاشت شبابها منطلقة متحللة من الكثير من القيم والضوابط الاجتماعية والأخلاقية لم تميز بين الحرية والانطلاق والتحلل.

أبو شاور، إذاً، يدين هذا النوع من السلوك الحياتي، وهو يفرق بين التحرر بمعناه الدقيق، والانحلال، فبقدر ما يدعو للأول، ويدافع عنه، نجده يدين الآخر ويشجبه، مساوياً في ذلك بين سلوك المرأة والرجل. ومن هنا ينتهي غالي، كما انتهت هنا، بمصرعه في أحداث المدينة الرياضية، فيموت هو الآخر بشكل مجاني، بعد أن تحول إلى كتلة من الحقد والغضب والصراخ المجنون، إثر مشاهدته مصرع حبيبته أمامه. على حين يتابع كل من فجر وزياد مسيرتهما معاً، وهما يخططان للزواج، وإنجاب الأطفال.

وإذا كانت "البكاء على صدر الحبيب" قد سلطت الضوء على بعض العلاقات العاطفية الصادقة التي نشأت، وتوطدت دعائمها بين عدد من شخصياتها، في مرحلة من أخطر المراحل التي مرت بها المقاومة الفلسطينية، بدءاً من أحداث عام ١٩٧٠، وصمود المقاومة، ومن ثم تبديد شمل المقاتلين، وانتهاء بأحداث بيروت في أيار ١٩٧٣، فإن رواية "الرب لم يسترح في اليوم السابع"<sup>(١٥٥)</sup>، قد وقفت بصورة أكثر شمولاً وعمقاً على العلاقة ذاتها، بين "رشيد وزينب" في مرحلة هي الأخطر من نوعها في تاريخ المقاومة الفلسطينية، وربما في تاريخ الصراع العربي - الفلسطيني والصهيوني في المرحلة الراهنة.

تحكي الرواية عن ترحيل المقاتلين من بيروت إلى تونس، عقب الاجتياح الصهيوني للبنان عام ١٩٨٢. وملتقي في الصفحات الأولى من الرواية شخصية "رشيد" وهو كاتب وصحفي ومقاتل وعاشق، كان يعمل قبيل الرحيل مذيعاً في إذاعة صوت الثورة. أعجب بزینب، ومن ثم أحبها. وكانت "زينب" قد انضمت إلى صفوف الثورة إثر عودتها من أمريكا، لتشارك في القتال. يخاطبها رشيد في سرّه

(١٥٥) - أبو شاور، رشاد: الرب لم يسترح في اليوم السابع، دار الحوار، اللاذقية ط١/١٩٨٦.

قائلاً: "أحب الشريطة الحمراء حول شعرك الأسود. أحب ضفائرك الفوضوية، ووجهك الأسمر وعينيك.. أنت حلوة، وسيمة، مفرحة بالكاكي،.. وبعض الغبار على زغب عنقك.."<sup>(١٥٦)</sup>.

وحين يلتقيها ذات صباح تسأله بصراحة وجرأة: ماذا تريد؟ فيجيبها: "أريد أن أخذك معي على جواد، أنت تغنين، وأنا أشرع صدري للريح، نمضي حتى آخر الدنيا"<sup>(١٥٧)</sup>. وليست علاقة رشيد بزینب أحادية الجانب، فهي تبادلته مشاعر الحب والإعجاب والتقدير، إذ كانت تحدّث عنه زميلاتها بإعجاب، وتذهب إلى الاحتفالات والندوات التي يلقي فيها محاضراته، كما تتابع قصصه وبرامجه الإذاعية، ومقالاته الصحفية بشوق ولهفة.

وعلى الرغم مما تكنه له من مشاعر الود والحب والإعجاب، فهي لم تصارحه بها في بداية الأمر، ربما لأن الوقت العصيب الذي جمعها معاً، لا يسمح بالكشف عن المشاعر العاطفية الخاصة، فالغزو الصهيوني، وما جرّه من فظائع وويلات، حال بين المحبين والتعبير عن مشاعرهم وعواطفهم المتأججة.

وحين يرحلان مع جموع المقاتلين، على متن الباخرة "سولفرين" تتوطد العلاقة بينهما أكثر فأكثر، وتتعمق مشاعر الحب، ويغدو الحلم بالوصال هاجساً يسكن قلبي العاشقين. فما هي تتساءل، وهي داخل قمرتها، وجسدها المتعب يطلق آهته ابتهاجاً بالاستحمام، والماء الدافئ يترقرق على رأسها، ومنكبيها مع عبير الصابون، فينعش روحها: ".لو أنا ورشيد في كابينة واحدة معاً، ومنتقل بين جزر الحب اليونانية التي سمعنا عنها، ونعيش كباقي خلق الله أياماً سعيدة، بلا حرب، ولا رحيل.. ولا طائرات تقصف أحلامنا. آه رشيد.. لكنا معاً، أستحم أمامه، ربما أغسله كطفل صغير.. وأجفف جسده، أنسيه ثدي أمه الذي اخترقته الرصاصه.. أنسيه الحليب والدم، أنجب له أطفالاً وطفلات، يكونون له أبناء وإخوة وحياة"<sup>(١٥٨)</sup>.

هكذا تحلم "زينب" بحقها في الحياة، كأى امرأة، كأى إنسان طبيعي سوي، بالحب والزواج والأولاد، بالاستقرار والأمان والسلام والحرية والعدل. هذه المفاهيم التي جندت لها نفسها وحياتها، وحملت السلاح مع سواها من الثوار الفلسطينيين من أجل تحقيقها. ولكنّ حلمها سرعان ما يصطدم بالواقع المأساوي، وهو على

<sup>(١٥٦)</sup> -المصدر السابق ص١٨-١٩.

<sup>(١٥٧)</sup> -الرب لم يسترح في اليوم السابع ٢٤.

<sup>(١٥٨)</sup> -المصدر السابق ٦٤.

الرغم من مأساويته، لا يستطيع أن يغتال الحلم، أو يصادر الفرح والأمل من نفوس العاشقين والمرحّلين.

ويلمس الباحث، أثناء تتبّعه لعلاقة زينب برشيد، مقدار ما تتميز به شخصيتها من عفة واحتشام، ليس في علاقتها مع حبيبها فقط، وإنما في علاقتها بأصدقائها أيضاً، إذ تتجنب إثارة أي انتقاد من رفاقها حول مظهرها وتصرفاتها وأخلاقياتها، فتحاسب نفسها، وتحترم مشاعر الآخرين، ولا تخرج عليهم بما لا يليق بمناضلة ثورية، ولذا توجّل ارتداء الفستان الذي أحضرته معها، إلى حين الوصول.

كذلك، يقف الباحث على هذا الكم الكبير من الحنين والشوق للأرض والوطن، والإخلاص الكبير لكل ما هو مأثور وشعبي (الدبكة، الزي الفلسطيني، الميرمية، خبز الطابون..) ويتجلّى ذلك من خلال الحوار الثري الذي يدور بين زينب ورشيد من جهة، وعشاق الثورة والأرض من جهة أخرى.

فمن خلال تلك الحوارات العذبة الدافئة التي تتضح بالشوق والحنين، نرى كيف تمزج الرواية بين العشق بمعناه القريب والخاص، والعشق بمعناه العام.. تقول زينب للعجوز أبي العبد، أحد الثوار المرحّلين: "الوطن هنا يا عم.. ودقت بيدها على صدرها. وهنا.. ثم مررت أصابعها حول جسدها، كأنما تتبّع الدورة الدموية، ورددت.. وهنا.. وهنا.. فقال رشيد (معلقاً) أمين.. هذه صلاة صباحية جميلة" (١٥٩).

وحين توغل السفينة في البعد، وتغيب بيروت عن الأنظار، يمسك رشيد بيد زينب، ويمشي معها بهدوء، وينظر بعيداً، ويسألها: "والآن في أي الجهات فلسطين.. أين هي" (١٦٠) فتبتسم له، وتضع يدها على الجهة اليسرى من صدرها وتقول: "هنا، في هذه الجهة (ويسألها): وأنا؟.. (تجيبه): "في داخلها" (١٦١).

هكذا دأب الروائي الفلسطيني رشاد أبو شاور، في مجمل رواياته، على المزج بين الحب الشخصي، وحب الوطن، فالأول لا يمكن له أن ينمو ويحيا إلا في ظلال الآخر. كذلك دأب على أن يجعل الحب مشروعاً حتمياً للزواج. ليس إيماناً منه بالمواضع الاجتماعية، والقيم الأخلاقية التي يباركها الدين والمجتمع وحسب، بل إيماناً منه أيضاً بأن الزواج والإنجاب بالنسبة للفلسطيني واجب

(١٥٩) - الرب لم يسترح في اليوم السابع ٢١٢.

(١٦٠) - المصدر السابق ٦٧.

(١٦١) - المصدر السابق ٦٧-٦٨ بتصريف.

وطني. يقول رشيد لزوينب، حين تسأله عن سبب تأخره في الزواج: "عقلي يقول: الفلسطيني يجب أن يتزوج وينجب، لأن شعبنا يخسر المئات والألوف في المعارك، يجب أن لا ننقرض أو نتناقص"<sup>(١٦٢)</sup>.

وهكذا، فلقد رسم أبو شاور العلاقة العاطفية الصادقة بين الرجل والمرأة في إطار الأرض والوطن، فكانت الأرض هي القاسم المشترك بين مختلف العشاق أو المحبين، ومحور تفكيرهم وسلوكهم.

\*

وثمة علاقة عاطفية صادقة من طرف واحد، تطالعا في رواية "عباد الشمس" لسحر خليفة التي ترصد أبعاد تلك العلاقة من خلال تناولها لقضية المرأة العربية عموماً، والفلسطينية خصوصاً، وكل ما يتصل بهذه القضية من مشكلات اجتماعية ونفسية وفكرية. إذ ترصد الروائية العلاقة العاطفية الأحادية الجانب بين "رفيف وعادل"، وتثير عبر هذه العلاقة، موضوعات على جانب كبير من الأهمية، تتعلق بالمتقف العربي، وموقفه المتناقض من المرأة.

ورفيف شابة فلسطينية في الثلاثين، تعمل صحفية في مجلة البلد في الضفة الغربية، أحبت صديقها في المجلة "عادل الكرمي" ابن الإقطاعي الوجيه، وهو شاب مثقف، منسلخ عن طبقته المهترئة، بسبب ظروفه الحياتية الصعبة، وكثرة المسؤوليات الملقاة على عاتقه نحو عائلته. وهو ذو فكر يساري، أعجب برفيف، ولكن إعجابه بها لا يصل حد الحب، أو التفكير بالزواج منها، أحياناً كان يحس بالرغبة فيها، لكنه يراها "فتاة عربية تريد الحب، وهذا ما لا يقدر عليه"<sup>(١٦٣)</sup>.

وتحتدم مشاعر الرغبة لديه حين تعيش معه لحظات من فرح الطفولة والعذاب، وقتها فقط يحس أنها قريبة جداً، ويشعر بأن "العالم دافئ، له طعم النبيذ"<sup>(١٦٤)</sup>، فيتمنى لو يحتويها، ويقول لها أشياء حميمة، ويقبلها، وينام معها على الحشيش، ويستمر معها في الطيش والجنون والنسيان<sup>(١٦٥)</sup>. لكن هذه الرغبات تبقى أسيرة التمنى لديه، فهو لم يحاول خداعها، أو التعزيز بها، كما أنّ "رفيف" ليست من ذلك النوع المنفلت الذي يسعى وراء اللذة، وإشباع رغبات الجسد، ولكنها من النوع الذي يسعى لإقامة علاقة متكافئة مع من تحب. تحافظ

(١٦٢) - الرب لم يسترح في اليوم السابع ص ٣٢.

(١٦٣) - خليفة، سحر: عباد الشمس، دار الجليل، دمشق ط٣/١٩٨٤ ص ١٦.

(١٦٤) - المصدر السابق ص ١٦

(١٦٥) - ينظر المصدر السابق ١٦.

من خلالها على إنسانيتها وكرامتها وصدقها وعفويتها. علاقة تمنحها الحب الحقيقي، وتمهد أمامها الطريق للزواج، وإنشاء الأسرة، وتحقيق الاستقرار.

فحين "شدها إلى صدره، محاولاً امتصاص حزنه وحزنها، اختبأت لحظات، وانسحبت بعنف... استدارت بوجهها عنه، فهي تعرف أنه لا يحبها، وأنه لا يحتاجها، وأن حاجته إليها لحيفة مؤقتة.. وهي ترفض هذا، ترفض أن تبني علاقات عابرة سطحية. العلاقة يجب أن تكون عميقة. كل شيء يجب أن يكون عميقاً، حاداً، يجعل للدنيا معنى وطعماً ونتيجة. كل شيء يجب أن يقرب الإنسان من قلب الدنيا، من موطن الدفء، من رحم الحياة، وهناك تكمن الحرية"<sup>(١٦٦)</sup>.

وإذا كانت "رفيف" تجد في ارتباطها العاطفي الحقيقي بمن تحب دفناً وحرية، فإن عادلاً يرى في ذلك الارتباط عبئاً ثقيلاً، يزيد في أعبائه، وليس باستطاعته احتمالها. بل يراه صكاً للعبودية. ويرى أن فتاة الوطن العربي حين تطالب بالعواطف، وتقيم لها وزناً، تكون "حرمة تعيش في دوامة الروتين. بينما يعتقد أن المرأة العصرية، حين تندمج في المجتمع والعمل، فإنها ستغلب على إحساسها بالعزلة، ومن ثم يمكنها الاستغناء عن العواطف.

هذا الموقف المتناقض الذي يقفه "عادل" من المرأة، يكشف عجزه من فهم واقعها، وطبيعة تكوينها النفسي والعاطفي والاجتماعي والأخلاقي، ويُفصح عن عدم انسجامه مع الأفكار والمفاهيم التي يثيرها، وينادي بها. مما يستفز "رفيف" ويغضبها ويدفعها إلى صبّ جام غضبها على كل شيء. على كلّ الشعارات التي يحتمي وراءها عادل وأمثاله. ومن الطبيعي أن تعيش رفيف هذه اللحظات الأليمة، فهي تعرف أن شوقها يذلها، وإحساسها بالتبعية يسحقها، وانشغالها به عن قصائدها أوقف نموها الأدبي<sup>(١٦٧)</sup>. ولكن هل تستسلم لهذا الواقع؟ فإذا كانت قد تعثرت، فإنها تدرك عثرتها، وتعي خطأها، وتؤمن بضرورة النهوض والمواجهة والتغيير، وهذا ما يميزها عن العديد من النساء اللواتي استمر أن العيش في أتون الجهل، واستسلمن لواقعهن القاسي، وارتضين الرضوخ والاستكانة والتبعية، نظاماً بديلاً عن حياة تسودها الحرية والمساواة والعدالة بين الرجل والمرأة.

وتعبر "رفيف" عن مشاعر الخيبة والأسف، بعد تجربتها العقيمة مع "عادل":  
"أكره تجربتي معك.. لأنك كرهتني بنفسي، أفقدتني احترامي لها، جعلت مني واحدة من المعذبات الساذجات.. مذ رأيتك، وقلبي في وجع دائم. وماذا نلت من

(١٦٦) - عباد الشمس ١٨-١٩.

(١٦٧) - ينظر المصدر السابق ١٠٨.

كل هذا؟ لا المتعة، ولا ضبط النفس، وتحقيق نظام يساعدني على الإنتاج أكثر، ولا الحصول على المزيد من الاستتارة والارتقاء..<sup>(١٦٨)</sup>.

ولكنها، بعد إدانتها له، ورفضها لمواقفه المتناقضة اتجاه المرأة، سرعان ما تلتمس له الأعذار، فتراه "مجرد رجل.. مشوه، مغموع مثلها تماماً، ومثل الآخرين، مهشم، هشمته الدنيا، وبلدته التجارب، بدون عواطف؟ لا، العلة تكمن فيما هو أعمق، ولماذا لم تستطع الوصول إلى علته لتعرف؟ الشرق؟ والده؟ الاحتلال؟ العروبة؟ الخذلان والإحباط وتعقيد الحياة؟"<sup>(١٦٩)</sup>.

وانطلاقاً من موقف "عادل" المترجح، فإن رفيف ترفض أن تصبح تابعاً له، وأن تستسلم لعواطفها حتى في أكثر اللحظات دفئاً وشاعرية، بفضل قوة شخصيتها وتماسكها، وبفضل تسليحها بالوعي، وبالقيم الأخلاقية والاجتماعية والفكرية. وهكذا تستجمع قواها، فتغلب عقلها على عواطفها، معلنة: أن الموت أرحم من رؤيته لها وهي تنهار.

وتستطيع رفيف التغلب على مشاعرها تجاه من تحب، وتتمكن من التحرر من هيمنته عليها، فتشعر بفرح الانتصار، إذ امتلكت حريتها وكبرياءها وأصبحت سيدة نفسها، أما هو فشعر بالبرودة والخواء، "معها كان يحس بأن باستطاعة الإنسان أن يتخفف من أحماله وأوزانه.. كانت في الحياة لحظات دفاء.. وها هي رفيف قريبة منه، لكنها عنه بعيدة، أصبحت حرة"<sup>(١٧٠)</sup>.

لقد آمن عادل أخيراً بـ "أن العواطف ليست شوائب تضعف الإنسان وتعرقل ثورته، إنها إنسانية الإنسان، فحين يستجيب لها لن يفقد حريته كما كان يعتقد، وإنما سيزداد قوة وفاعلية.. إذاً، بفضل الإحساس يكف.. المثقف عن التيه في علاقاته الإنسانية، كما يكف عن أن يكون إناء مضغوطاً بالكلام والفسفسطات، ليصبح أكثر حرارة وصدقاً وإبداعاً، فيتسع أفقه، إذ يحس بالواقع ونبضه، فينطلق منه بعيداً عن حرفية أفكار مستوردة، قد تعرقل مسيرة تحرر المرأة أكثر مما تدفعها إلى الأمام"<sup>(١٧١)</sup>.

هكذا تعلي سحر خليفة من شأن العاطفة، فلا تعدّها نقطة ضعف، وفي الوقت نفسه تؤكد دور العقل الواعي في توجيهها، والسمو بها بعيداً عن الانسياق

(١٦٨) -عباد الشمس ١١٢.

(١٦٩) -المصدر السابق ١١٤.

(١٧٠) -المصدر السابق ٢٥٠.

(١٧١) -حمود، د. ماجدة: "المرأة في روايات سحر خليفة" المعرفة، العدد ٣٧٣ ص ٢٠٤.

وراءها، والتردي في مهاوي الخطأ والفساد.

## ٢- علاقات زائفة:

قلّما نقع في الرواية الفلسطينية على هذا النوع من العلاقات، وهو إن وجد يكاد يكون محصوراً في أوساط بعض المثقفين الرجعيين أو الثوريين المزيفين. ولعل السبب في ذلك يعود إلى أن الرواية الفلسطينية، هي أولاً رواية تهتم بالقضايا السياسية، ذات المضمون الوطني النضالي، وكثيراً ما تأتي العلاقات الاجتماعية فيها في المرتبة الثانية، وهي مشدودة بخيوط متينة إلى الإطار السياسي الذي يحيط بها، ويؤثر فيها. من هذا المنطلق، ومن منطلق ازدياد الروائي الفلسطيني للزيف، ولمن يجسده من الشخصيات، التي تحاول من خلال سلوكها المشين، ومواقفها السلبية، أن تعيق مسيرة الثورة، وتشوه شخصية الإنسان الفلسطيني وصورته، كان لا بدّ من كشفها وفضحها. فما تفعله القلة القليلة لا يشين الكثرة، ومن هنا لم يشغل رصد تلك العلاقات المزيفة حيزاً هاماً في الرواية الفلسطينية، إلا بمقدار ما يُستفاد من دروسها، وكثيراً ما يقع الباحث على تلك العلاقات من خلال تيار وعي الشخصية، أو عبر مذكراتها أو اعترافاتها، أو منولوجاتها الداخلية.

\*

ففي البكاء على صدر الحبيب لأبي شاور، نقع على شخصية "فجر" الثورية المثقفة، وقد أحببت قيادياً زائفاً، حصل مؤخراً على درجة الدكتوراه في الاقتصاد السياسي، "كان شقيقه أحد الكبار، فبدأ في مهاجمة شقيقه وعلاقاته مع بعض الأنظمة الرجعية- وأفكاره اليمينية المتخلفة.. ثم أخذ نجمه يلمع.. ندوات، كتابات، مقالات، حوارات.. استقطاب الشباب الراض، فإذا به اسفنجة تمتص غضب الشباب من جهة.. وإذا به يحول الجميع إلى درج يصعده إلى فوق" (١٧٢)، لقد خدع وناق، وأرسل العشرات إلى الموت في عمليات إرهابية فاشلة في الخارج، وشوه الأفكار التي حلم بها الشباب الراض.. وكانت "فجر" أولى ضحاياه، على الرغم من إخلاصها الشديد له، وحبها الكبير، ذلك الحب الذي دفعها في لحظة ضعف مسروقة منها. إلى أن تهديه شمعتها فأحرقها، وحطم جدارها المقدس، وولى هارباً إلى فتاة أخرى، تاركاً "فجر" غارقة في بحر الأسى والانكسار. تخاطب "فجر" صديقها زياد: "التقيت به في عمان عند سوق الصاغة قبل أيلول بحوالي شهر، رأيته يصطحب فتاة معه، حاول أن يشيح وجهه عني،

(١٧٢) -البكاء على صدر الحبيب ٢١.

لكن كان الأوان قد فات، إذ التقت عيوننا، وأدركت أن ثمة في الأمر شيئاً.. عرّفها عليّ: فجر من أخواتنا الأردنيات اللواتي يعملن معنا، صعقت. كنا نعد العدة لإعلان خطوبتنا في ذلك الإِسبوع. ثم قال: خطيبيتي جنان الجوادي. تركتهما دون أن أنبس بكلمة<sup>(١٧٣)</sup>.

ولكن "فجر" استطاعت بما أوتيت من شجاعة وقوة وإرادة، أن تتغلب على إحساسها الحاد بألم الخيبة، وذل الانكسار، وتستعيد ثقة الآخرين بها، ولا سيما "زياد" صديقها الوفي الذي أحبها بصدق وإخلاص، ووقف إلى جانبها ساعة المحنة، واستطاع أن يزرع الفرح في عينيها الخضراوين، فإذا بالدم يهدر في العروق، وإذا بالقلوب الطامئة للحنان والراحة يعلو وجيبها، وإذا بالسعادة ترفرف فوق رؤوس العاشقين، وتظهر نفوسهم<sup>(١٧٤)</sup>.

\*

وإذا وجدت "فجر" من يقف إلى جانبها، وينسيها مرارة الخيبة، فإن "نوال" في "مذكرات امرأة غير واقعية" سحر خليفة لم تجد من يعزيها بحبيبتها الضائع، لكنها تابعت مسيرة حياتها وحيدة، بعد أن بحثت طويلاً عن الطريق الصحيح، فحققت استقلالها وحريتها، بالعمل والكفاح.

ونوال سليمة أسرة لها تاريخ مع الاعتقالات والتعذيب، وغرف التحقيق. أحبت وطنها بصدق ووعي وإخلاص، ولأجله انخرطت في العمل الثوري. أحبت رجلاً ثورياً، كانا يشتركان معاً في توزيع المنشورات السياسية، وأحبها هو بدوره، لكنّه حين أراد أن يتزوج، اختار "ابنة عمّه، فتاة صغيرة لا تفقه شيئاً"<sup>(١٧٥)</sup>. ضارباً بالحُب والوعد عرض الحائط. وتصاب نوال بنوبة هستيرية من البكاء وهي أمام صديقتها، تحكي لها قصتها وفجيعتها بمن أحبته، وآمنت به، ولم تكن بالنسبة له سوى "عابرة الطريق رغم الرفقة والرفاق، وخيوط القضية"<sup>(١٧٦)</sup>. لكن هذا البكاء لم يكن إلا تطهيراً للنفس الملتاعة، والروح المصدومة. فعزم "نوال" (لبلوب اخضرار شديد الألق)<sup>(١٧٧)</sup>، وإرادتها صلبة كالفولاذ، وثقافتها ووعيها وعملها موظفة في المصرف، إضافة إلى عملها في المنظمة، كل ذلك ساعدها على تجاوز محنتها ووحدتها، وعلمها كيف تضحك حين يشد الألم ويقسو.

(١٧٣) - المصدر السابق ٥٧-٥٨.

(١٧٤) - ينظر: البكاء على صدر الحبيب ٥٨.

(١٧٥) - مذكرات امرأة غير واقعية ١١٧.

(١٧٦) - المصدر السابق ١١٨.

(١٧٧) - المصدر السابق ١١٩.

\*

ولا يقف الزيف والخداع على تخوم العلاقات العاطفية فحسب، بل يمكن للصدافة أن تغدو جسداً مطعوناً بحراب المخادعين المزيفين، وهذا ما نقع عليه في رواية "بوصلة من أجل عباد الشمس" لليانة بدر، التي تتناول أحداث أيلول عام ١٩٧٠، وما تبعها من أحداث في لبنان، من خلال حشدها لعدد غير قليل من الرجال والنساء، ولكنها تولي النساء اهتماماً خاصاً، فتروي حكاياتهن، وتضيء عالمهن المليء بالخوف والدهشة والشوق والظلم والفجعة، وتصور معاناتهن من شتى صنوف القهر والإذلال والإبادة داخل الأرض المحتلة وخارجها. ولكنها لا تخفي في الوقت نفسه، حماسهن وتحررهن وثورتهن، وقدرتهن على مواصلة العيش والصمود، ومواجهة الصعاب في شتى الأحوال.

تحكي الرواية عن العديد من الفتيات الثوريات، وغيرهن، وعلاقاتهن بالأرض والوطن والثورة والرجل والمجتمع.. هذه العلاقات التي لم تكن بمنأى، في بعض الأحيان، عن الانزلاق في مهاوي الإخفاق والخيبة، كعلاقة "شهد الصمدي" بـ ماجد عبد الباهي الذي قدمته الرواية إنساناً متناقضاً عاجزاً عن فهم المرأة واستيعاب ظروفها وواقعها. فهو شاب مثقف، عصري وذكي، خريج جامعة أكسفورد، يدرس في معهد للإناث. وكثيراً ما كان يتحدث عن مشاريعه الحديثة في تطوير المعهد. أعجب بشهد، إحدى تلميذاته، وهي فتاة ذكية، مثقفة، ومتحررة، رومانتيكية منفتحة على الجميع. أعجبت به، وبتقافته وذكائه. قال لها يوماً: "أتمنى لو أصبحت علاقتنا حميمة. أجابته بفضول محايد: ليس ما يمنح هذا، فأنا صديقة للجميع.

-ولكنك نوع نادر مختلف عن الأخريات. أحسك تعامليني بطيبة الأصدقاء القدامى" (١٧٨).

دعاها في أحد الأيام في زيارته، فلبت الدعوة بطيب خاطر، وثقة بالنفس دون تردد، واشتركت معه في إعداد الطعام. "وعندما أراد أن يكرمها، ويصنع لها فنجاناً من القهوة وثبت "شهد" إلى المطبخ، وقامت بغلي القهوة، دون أن تترك له الفرصة للنهوض من مكانه، ثم تناولت كتاباً من مكتبته، وأنشأت تتحدث عنه بطلاقة، وإدراك تفصيلي لجزئياته.. (١٧٩).

وإذا كانت "شهد الصمدي" تتعامل مع أستاذها "ماجد عبد الباهي" بصدق،

(١٧٨) -بدر، ليانة: "بوصلة من أجل عباد الشمس" دار الثقافة الجديدة، القاهرة طبعة خاصة ١٩٨٩.

ص/٥٢/ وقد صدرت الرواية أول مرة عن دار ابن رشد، بيروت ط١/١٩٧٩.

(١٧٩) -المصدر السابق ٥٣.

وحسن طوية، من منطلق الصداقة البحتة، ويحلو لها أن تتجاذب معه أطراف الحديث، وتطرح عليه بعض الأسئلة، فإنه لم يكن ينظر إليها إلا من منطلق الشهوة والرغبة، بوصفها صيداً، يحلو له أن يقتنصه: "قك أزرار قميصه الأولى: الحر الخانق، تأفف وقال: سألتها بوداعة ولطف: هل أفتح الشباك؟ لا. لا داعي، كيف تكون البداية مع هذه الفتاة؟ قام وشدها إلى صدره في عناق عفيف. أشياء كثيرة حدثت، فهل يذكر جمود عينيها وبحلقها المفاجئة؟ أم صرخة الذهول التي أعقبها فكاكها من يديه وجريانها إلى باب البيت، وهي تتقلص تدريجياً متحولة إلى صرخات متتابعة مختنقة"<sup>(١٨٠)</sup>.

هكذا تتكشف الخديعة أمام شهد، وتتهار الأفعنة، وإذا بماجد عبد الباهي يلوي وجهه عنها فيما بعد، فيتحاشى التحدث إليها، ويتجاهل كلماتها في الصف، ويرمي بأسنلتها بعيداً، كلما عن لها أن تماحكه، متغافلاً عنها، وهو الذي حدثها يوماً عن طيبة الأصدقاء القدامى.

وبعد نخلص إلى القول: إنه لدى دراسة العلاقة بين المرأة والرجل، ولدى الوقوف على العلاقة بينهما داخل الأسرة، تبين لنا حضور المرأة الأم بصورة متميزة في مجمل الروايات الفلسطينية المدروسة، وبروز دورها الفاعل على صعيد الأسرة. ولعل السبب في ذلك يعود إلى أن الأم تشكل في الوطن العربي قيمة اجتماعية ونفسية وأخلاقية عالية، وتنطوي على قدرة غير محدودة على العطاء والتفاني، إضافة إلى ما تحمله من دلالات ورموز موحية ثرة.

ولدى تتبعنا بالتقصي والتحليل علاقة المرأة- الأم بأفراد الأسرة، لمسنا حرص الروائي الفلسطيني على أن يقدم، بأمانة ودقة، صورة واقعية حية للأم الفلسطينية الكادحة الصابرة الوفيّة المضحية، المحبّة للحياة وللأرض وللعمل. المفعمة بالحميمية تجاه الوطن وأبنائه الشرفاء. المربيّة الفاضلة للأبناء. الوفيّة للزوج، حاضراً وغائباً. المعينة له في شؤون العائلة، بل الحاملة همّه ومسؤوليته أحياناً، بالإضافة إلى مسؤولياتها تجاه الأولاد، متجاوزة بذلك حجم الرجل وقدراته، كما هو الحال لدى "أم سعد" في الرواية المعنونة باسمها.

ولدى تتبع علاقة الأب بابنته، تبين أن الروائي لم يعن كثيراً برسم صورة الأب التقليدي- السلبي، ربما لأنه يعيق مسيرة الفتاة في تقدمها وتطورها اجتماعياً وسياسياً وفكرياً.. لذا جاءت صورته باهتة المعالم، وبدا تأثيره في مجريات الأحداث ضعيفاً، باستثناء الصورة التي رسمتها سحر خليفة لذلك النمط من الآباء

(١٨٠) -المصدر السابق ٥٤.

في "مذكرات امرأة غير واقعية" وقد حددت هذا النمط طبقياً، إذ ينتمي إلى الطبقة البرجوازية التي أدانتها في معظم رواياتها، على حين بدت علاقة الأب الذي ينتمي إلى الطبقة الكادحة، مع ابنته أكثر ودية وانفتاحاً، فكان يتعامل معها من منطلق إنساني صرف. يحترم اختيارها، ويبارك موافقها، ويشجعها على الزواج ممن تحب، ويناسبها أخلاقياً واجتماعياً وفكرياً.

ومن خلال الوقوف على العلاقة بين الاخوة والأخوات، لاحظنا براعة الروائي في تقديم صورة مشرقة معافاة وصحيحة للعلاقة الأخوية، بما يسودها من محبة واحترام وتفاهم وتراحم.

ولدى دراسة العلاقة بين الأزواج، استوقفتنا ظاهرة غياب الأزواج، وقد عللنا ذلك، وتبين أن الأسرة الفلسطينية، كما أظهرتها الرواية، كانت أبدأً مفجوعة بأحد قطبيها، ويغلب أن يكون الزوج. وكأنه كتب عليها أن تمارس طقوس الموت والفجيعة والحزن والأسى، منذ ما قبل النكبة إلى ما بعد الاجتياح الصهيوني للبنان، ولا تزال. إنها بقايا أسرة، ولكنها بقايا صامدة. تحاول جاهدة التشبث بأحلامها وبحقها في حياة حرة كريمة.

وبعيداً عن الإطار السياسي النضالي، تم الوقوف على شكل آخر من أشكال العلاقة الزوجية. عالجت سحر خليفة في "مذكرات امرأة غير واقعية"، إذ بدت العلاقة الزوجية ذبيحة على عتبة القهر الاجتماعي، والتسلط الأبوي الذكوري. على حين ظهرت هذه العلاقة في روايتي جبرا إبراهيم جبرا، بعيدة إلى حد كبير عن الجدية والإخلاص والوفاء. فبدت في تفككها وتمزقها وتوترها وعجزها، صورة مصغرة عن عالم تلك الطبقة التي تنتمي إليها شخصيات جبرا، والتي حرص على تعريتها من الداخل، وكشف زيفها وتفاهتها وتناقضاتها وانهارها.

ولدى دراسة العلاقة بين المرأة والرجل خارج الأسرة، وقفنا على مستويين لهذه العلاقة، إيجابي وسلبي: تجلى الأول في أوساط المناضلين والمثقفين الثوريين الحقيقيين. فعلى حين رسم أبو شاور هذه العلاقة في إطار القضية الوطنية، فمزج بين الحب بمعناه الخاص، والحب بمعناه العام كحب الوطن والأرض، وجدنا سحر خليفة، رسمت العلاقة ذاتها في إطارها الاجتماعي الذي يتناول قضية المرأة العربية عموماً، وما يتصل بها من قضايا وأفكار ومفاهيم عديدة، وأمراض اجتماعية مختلفة. ولكن كلا الكاتبين أكد أهمية الحب، بوصفه عاطفة إنسانية رفيعة، تسهم في بناء الأسرة وحمايتها لتكون بدورها لبنة صالحة في بناء المجتمع والوطن.

وتجلى المستوى الثاني (علاقات زائفة) في الأوساط البرجوازية، والثورية غير الحقيقية، ولم يشغل حيزاً هاماً في الرواية الفلسطينية، وجاء رصد هذه العلاقات بقصد إدانتها، والدعوة إلى تجاوزها، والاستفادة من مغزاها.

□□□